

# مجلة الخريدة

العدد 2 - شهر مارس 2016  
الموافق لجمادى الأولى - جمادى الآخر

مجلة إلكترونية - تصدر كل شهرين تُعنى بالأدب، والفكر، والثقافة

«يحيى بختي»

الشاعر المجاهد يوارى التراب!

عبد المومن تلايف

رؤوف بن الجودي  
عن التعليم أتكلم...  
المقالات

أحمد العمّاري  
واحة الدفء  
القصاصات

عادل حميد  
أوراق بحثية في التراث الأدبي الجزائري  
«ابن أبي حجلة»  
من التراث

جيلاني ضيف

«لا أدب بدون قيم»  
ولا قيم بدون أدب...»

مدونون  
facebook

ركن  
جديد



# مجلة الخريدة

العدد 2 - شهر مارس 2016  
الموافق لـ جمادى الأولى - جمادى الآخر



رئيس التحرير / رؤوف بن الجودي

نائب رئيس التحرير / عمر خزار

هيئة التحرير /

رمضان بوتكانو

عبد المومن تلايلف

فاطمة قاضي

مراقبة /

الفضيل بلعروسي

عمر بوشنة

محمد بلكيف

عادل حميد

تصميم / رؤوف بن الجودي

\_\_\_\_\_

للمشاركة في مجلة الخريدة

أرسلوا نصوصكم عبر البريد الإلكتروني  
للمجلة :

 majalat.alkharida@gmail.com

أو عبر صفحتها على (Facebook) :

 majala.kharida

جميع الحقوق محفوظة لأصحابها



حوار مع  
مبدع

ضيف العدد  
الأديب / جيلاني ضيف

3	الافتتاحية
4	حوار مع مبدع
9	مدونون
10	المقالات
26	القصائد
31	ماذا يعني لك؟
32	القصة والرواية
40	حدث هذا الشهر
44	من التراث



# افتتاحية

XX

الحمد لله على نعمة البيان، **وصلى الله وسلم على أحسن من نطق بالضاد**،  
منضودا في جوامع كلمه كالجواهر الحسن.. أمّا بعد:

حمدا لك ربّي

ظهر العدد الأول من «مجلة **الخريدة**» الإلكترونية، ورافق ظهورها صدّي جميل وصيت طيّب، دفعّا بالقائمين على المجلة إلى بذل جهد أكبر للوصول إلى الهدف الأسمى والغاية القصوى، بأن تستردّ «الكلمة القرآنية» مكانتها الشرعية في نفوس الجماهير العريضة، فضلا عن شريحة المثقفين والمتعلمين..

فكون المجلة يغلب عليها الطابع الأدبي لا يمنع من أن تتخذ من الأدب الذي ترؤّج له مطيّة لإبلاغ رسالة هادفة أو تمرير نصيحة بالغة، أو تجلية فكرة غامضة.. فالكلام عن التربية والتعليم، والتغيير والإصلاح، والفكر والاجتماع.. إلخ؛ لا يعدّ خروجاً عن الإطار العام الذي سطرته المجلة في افتتاحيتها السابقة [أنظر افتتاحية العدد-01 جانفي 2016]، ولا يتناقض-البتة- مع الرؤية الراسخة المبنية على الركنتين الثابتين: «الأصالة والإبداع».

وقد جاءت المواضيع في إطار واحد تقريبا دون توافؤ بين كتابها، تحسّس القارئ بخطورة الرطانة باللغة الأجنبية، وتأثير ذلك على أفكاره ومقومات هويته، فيخبو حبّ الوطن، ويتضاءل الشعور بالانتماء إلى هذه الأمة العظيمة. هذا بالإضافة إلى التنبيه على إعادة النظرة في طرق التعليم ومناهج التربية في المؤسسات التربوية، ولن يحدث هذا ما لم نول اهتماما بالغاً للمعلّم الذي يمثّل حلقة الوصل بين الدرس والطالب!

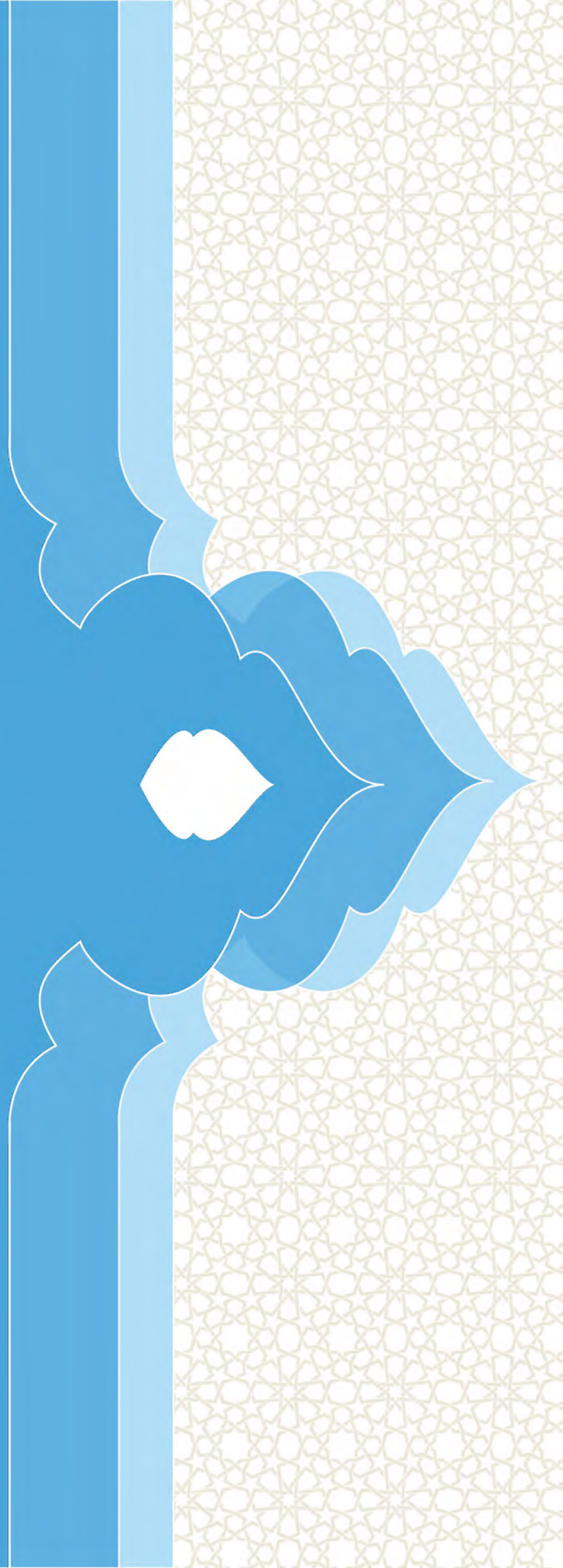
سنركّز جهودنا بحول الله فيما نستقبل من الأيام، في ترسيخ عقلية البناء التي تبدأ بغريلة ما لدينا من أفكار مكدّسة لا طائل من ورائها (سوى هول حجمها، أين يجثم بعضها فوق بعض)، وترتيبها في أنساق نتيح الاستفادة منها، سالكين إلى تطبيق فحواها الطريق الصعب الوعر: «طريق الواجبات». ولن تكون لتلك الأفكار أدنى قيمة ما لم نرسم منهجية واضحة عند التطبيق!

مجلة  
**الخريدة**

وأول المطر.. قطرة.



# حوار مع عبد





## الأديب/ جيلاني ضيف

حاورته/ فاطمة قاضي

حوار مع  
مبدع

فكنت أتجراً وأكتب خريشات، ولحسن حظي وجدت من يشجّعني عليها ويثمنها ويبارك مسعى الكتابة من خلالها.

وأذكر فيما أذكر أنني في مرحلة التعليم المتوسط نظمت محاولة شعرية عن العلم، كانت أول مولود في مشواري الأدبي.. وساعتها هرعت إلى أستاذ الأدب «شريك علي» -شفاه الله- وقدمت له النص، فما كان منه إلا أن أمر بمحو موضوع الدرس الذي كان يزعم تقديمه، وأمرني بكتابة القصيدة على السبورة، وقال بلهجتة المتينة الواثقة: «اليوم أيها الطلبة سندرس قصيدة لشاعر اسمه **ضيف جيلاني**».. وكم كانت تلکم العبارة مؤثرة رغم أن الأقدار لم تكتب لي أن أكون شاعراً، ولكنها أحدثت دفعة قويّة وشحنة تركت أثرها فيّ إلى هذه الساعة.

درست بالثانوية القديمة وكانت الوحيدة يومئذ، وفيها امتدّت أواصر المودة والشغف بالأدب العربي من خلال المقررات التي وسّعت مداركي وإطلاعاتي، حيث فتحت لي فضاء مميّز ومؤثراً، فأكبت على المطالعة، وكنت ألتهم الكتب التهاماً كالذي ابتليّ بشره القراءة، وكان الأساتذة والمهتمون

ضيفنا لهذا العدد هو الأستاذ الأديب «جيلاني ضيف» الذي سيُطْفئ قريباً. شمعته الخمسين، متزوج وأب لستة أطفال: بنتين في المرحلة الثانوية، وأربعة ذكور أكبرهم يدرس بالجامعة، وأصغرهم بهم بوضع قدمه على عتبة التعليم الابتدائي. بدأ حياته أستاذاً للغة العربية وآدابها، ويشغل حالياً منصب مستشار للتربية في التعليم الثانوي، بخبرة تزيد عن ربع قرن!

**المجلة:** بداية أرحب بك ضيفي الجليل في ركن «حوار مع مبدع»، هذا الركن الذي لا يزال نوره مشعاً بوجود أسماء للألاء مثل اسمكم.

**الضيف:** سعيدٌ بوجودي معكم.

**المجلة:** بداية.. كيف ومتى كانت بدايات الأستاذ جيلاني ضيف مع الكتابة في مجال الأدب؟

**الضيف:** لعلاقتي مع الأدب قصة جميلة ومشوقة تشكلت وقائعها منذ الطفولة المبكرة، حيث أولعت بقراءة النصوص الشعرية والقصص سيّما وأن المقررات المدرسية في ذلك الزمن كانت تحوي القَيِّم والمهم من هذه النصوص، فنُسجت من خيوط في مجال الكتابة تربطني بكل ما هو جميل؛ علاقةٌ نمت وتوطدت وترسخت مع السنين، وكانت تكبر وتكبر وتتوسّع كلّما ابتعدت عن ضفاف الأدب لأبحر في أعماقه.

«جبران خليل جبران» الرسام الأديب والفيلسوف المتميّز، الثائر على هيمنة البشر باسم الدين وتحكّمهم في مصائر الضعفاء؛ كان له تأثير كبير في حياتي الأدبية والذوقية.. وكانت «الأجنحة المتكسرة» هي القصة التي شجّعتني على المحاكاة حينما تحسّست في وجداني شيئاً يتلملّم ويتحقّق للظهور،



بالأدب يمدونني ويدعمونني بالمتاح من الأعمال والكُتُب، حتى استطعت أن أجمع ما أمكن من الثقافة والمُكنة اللغوية التي جعلتني مَحَطَّ إعجاب الأساتذة وغيرهم ممَّن عرفني.

**المجلة:** هل نستنتج من كلِّ هذا أن توجَّهك إلى تدريس اللغة العربية، كان لإشباع هذه الشراهة الأدبية؟

**الضيف:** عندما أنهيتُ المرحلة الثانوية، كانت ملكتي الأدبية واللغوية قد تشكَّلت، وهذا ما شجَّعني وأثَّر في توجَّهي المهني، ودفعني للتوجه إلى المعهد التكنولوجي للتربية لألتحق بصفوف قسم أساتذة اللغة العربية، وكانت أياما حلوة ومثمرة، توسَّعت فيها مداركي وأُتيحت لي الفرصة لكي أظهر مواهبي الأدبية وقدراتي اللغوية. وصادف أن كان أستاذي في وحدة علوم الأدب واللغة الأستاذ ابن الشيخ محمد صاحب الشخصية الأدبية والعلمية المرموقة، وكان فضله عليَّ كبيرا، فقد شجَّعني كثيرا وأمدَّني بما كان ينقصني من الثقة في النفس، وله الفضل في تهذيب غروري وتحويله إلى طاقة عجيبة جعلتني أعيد حساباتي وأراجع كثيرا من آرائي ومواقفي..

في هذه الفترة أكببتُ على قراءة ودراسة الآداب العربية الحديثة من خلال ما كنت أجمعه من الدراسات والبحوث، ومن خلال القراءات الكثيرة لنصوصه. كما وجدت الفرصة سائحةً للاطلاع على الآداب الأجنبية مترجمة من الألسن الغربية إلى اللسان العربي، فتكشَّف لي أن الأدب قدرٌ من أقدار الإنسان، وأن الملكة واحدة والفنَّ واحدٌ وإن اختلفت الألسن. كما يمكن أن أجزم بأن حبَّ الأدب حبُّني في التربية، ومكَّنني من النجاح فيها إلى الحد الذي جعل التربية تدفعني إلى التعلُّق بالأدب، وهو الذي يعني في مرحلة ما من التاريخ تهذيب النفس وترقية المشاعر وترسيخ القيم النبيلة في النفوس. ووجدتني أدبيا مربيًا، أوظف الأدب في التربية، وأرثي لأرضي مشاعري وعواطف المتشبَّهة بالنصوص الجميلة الراقية.

**المجلة:** بما أن الأدب عبْد لك الطريق للتخصُّص في أسمى المهن، ألا وهي مهنة التربية والتعليم، فكيف تلخِّص لنا رؤيتك للأدب؟ ومن يستحق أن نطلق عليه صفة الأديب حسب رأيك؟

**الضيف:** قد سبقني الملايين من المتحدثين عن الأدب وجوهره وماهيته، وكلَّ منهم أدلى بدلوه وفق قناعاته وفهمه، غير أنني لا أزال متمزنا -في نظر بعضهم- عندما أصرخ قائلا: «لا أدب بدون قيم ولا قيم بدون أدب». فلا أحسب أن ما صيغ من النثر والشعر في مجالات الخلاعة والبذاءة اللفظية والسلوكية،

يمكن اعتباره أدبا، لأنه يتنافى مع رسالة الأدب ومنظر الأديب. أما الأديب الحقيقي فهو صاحب الملكة والموهبة. وهو الحريص على أن يُظهر الأدب في أبهى صورة. بعيدا عن الفُحش والانحراف في الشكل والمضمون. فكم من الذين يسمون أدباء وهم لا يستحقُّون هذا اللقب، بل الأدب منهم بريء!

إن رسالة الأديب هي رسالة الفنان الملتزم الذي يعبر عن القيم النبيلة والمشاعر الجميلة والأفكار النيرة، وينقلها إلى القراء المتذوقين ليستمتعوا بها ويتذوَّقوها، ويستعينوا بها في ترقية أنفسهم وتهذيب وجدانهم.

**المجلة:** بما أننا خضنا في الحديث عن الأدب والكتابة، كلِّمنا عن عصارة إبداعاتك؟

**الضيف:** الحقيقة أن ولعي بالقراءة والاستفادة من المقروء جعلني أزهد في التصنيف والتأليف، فضلا عن علمي بأن كل شيء ممكن ويسير في هذا الوطن إلا نشر الكتاب، فهو الأمر المستحيل العسير. ومع ذلك فقد كانت لي إسهامات في مجال التأليف التربوي، حيث وضعت كتابين في علوم اللغة العربية لطلبة البكالوريا، رأفة بهم وتذليلا لما يلاقونه من مشقة التعلُّم، وهما «فصول في علوم اللغة والأدب» [2009] و«الواثق في اللغة والأدب العربيين» [2012]، فضلا عن محاولة جريئة لإعداد مقرَّر مدرسي لتلاميذ السنة الرابعة متوسط، بديل عن المقرَّر الرسمي الذي لم يخلُ من العور ولم يسلم من الشوائب والعيوب. كما أنني أعددت موسوعة بلاغية مدرسية ميسرة، قام بطبعها المجلس الأعلى للغة العربية، ونلت بمقتضاها الجائزة الوطنية في علوم اللغة سنة 2009م، كما أن لي مخطوطين قيد النشر في علوم البلاغة بعنوان «المدخل إلى البلاغة التطبيقية». وفي مجال التأليف الإنشائي، لي مجموعة قصصية لم أشأ نشرها، ورواية بعنوان «عندما يثور القصدير»، لأنهما تحكيان مراحل من حياتي الشخصية، وقد كتبتهما استمتاعا بالكتابة لا طلبا للمجد أو الشهرة. وقد أغرَّ رأبي يوما ما وأنشرهما. كما صدر لي عن «دار الخليل العلمية» و«دار الكفاية» الجزائريتين مجموعة «بناة المجد»، وهي مشروعِي الأساس الذي أردته أن يظهر بغير الحلة التي ظهر بها، وهي سلسلة تُعنى بالتأريخ للنخبة الجزائرية في الأدب والسياسة والإصلاح، أردت من خلالها إنصاف من ظلم، ورفع الغبن عمَّن غُبن، وتذكير الأمة بجنايتها العظمى في حق الأعداء من بنينا، ولي مشروعان أحدهما تجسّد ورأى النور، وهو «ابن باديس المحرّر» و«الأمير عبد القادر بين الأمة والدولة»، وقد



طبعتهما دار أسامة للنشر والتوزيع، و«العبقريّة الجزائريّة في شخصيتي الأميرواين باديس»، وهي دراسة حديثة فيها الجديد عن شخصية الرّجلين ودورهما في بناء وترسيخ ثوابت الأمة الجزائريّة.. هذا فضلا عن مشاريع أخرى.

**المجلة:** إذا عرّجنا إلى الحديث عن القصيدة، فماذا تخبرنا عن علاقتك بالشعر؟

**الضيف:** للأسف الشديد ولسوء حظي أن علاقتي بالشعر انحصرت في دائرة التذوق والإعجاب، ومكتبتي -ولله الحمد- تتربع فيها دواوين الشعر العربي بفرسانه من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، وإن لم أكن شاعرا فأنا قارئ متميّز ومتذوّق للإيقاع، تطربني الأوزان وتحركني.

**المجلة:** نلمس من خلال كتاباتك دفاعك الدائم عن اللغة العربية، فهل يرجع هذا إلى كونك أستاذا للمادة، أم أن حال لغة الضاد يوجب ذلك؟

**الضيف:** اللغة العربية سكنت جوانحي منذ الصغر، وتربّعت في وجداني ورافقتني، وكانت الأداة التي صغتُ بها انتصاراتي وانكساراتي، لذا فولائي لها وتعلّقي بها يستوجب أن أرافع وأدافع وأدود عن حياضها. مسألة الاختصاص في التدريس لم تكن يوما سببا في هذا الموقف، لأنّ العربية في نظري كانت هويّة ووجودا، ولا أعتبرني أساوي شيئا بدونها.. علاقتي بالعربية بدأت أيام كنت أترنّم:

لا تلمني في هواها  
أنا لا أهوى سواها  
لغة الأجداد هذي  
رفع الله لها

**المجلة:** لا مجال للشك بأنك الأب القدوة في المطالعة والأدب، هلا حدثتنا كيف كان دورك في هذا كأستاذ، خاصة أن نسبة المقروئية في تقهقريدعو للقلق؟

**الضيف:** أذكرك بأنني تحرّرت من المهنة، غير أنني أسوق تجربتي السابقة للإفادة. المطالعة جزء مهم من نشاطي اليومي، وأذكر أن أول ما سعيت إليه هو تقريب الكتاب من

التلميذ، وخلق حيّز لهذا العنصر الهام في بناء المعرفة، من خلال التشجيع على القراءة والتعويد عليها، ومن خلال المسابقات الفكرية وإعداد العروض التي تعرّف بالكتاب ومؤلفه وموضوعاته. كما أنني أذكر أن صورتي ارتبطت بالكتب، إذ حرصت على ألا يراني تلاميذي إلا وفي يدي كتاب.

وإذا كانت المقروئية اليوم تسجل نسبا متدنية في مجتمعنا، فهذا مؤشر خطير وظاهرة غير صحيّة لا يمكن تجاوزهما إلا بترسيم القراءة كسلوك يومي اجتماعي وكنشاط فردي وجماعي، وذلك من خلال التشجيع على التأليف والنشر والقراءة والترويج للكتاب كمنتوج مهم لا يقل أهمية عما يُروّج له في وسائل الإعلام. لا شك أننا إذا أعدنا صوغ علاقتنا بالكتاب والمعرفة، سنُرسّي ملامح مجتمع مثقف يقرأ وينتج ويتذوق ما يقرأ.

”قد سبقني الملايين من المتحدثين  
عن الأدب وجوهره وماهيته..  
وكلّ منهم أدلى بدلوه وفق قناعاته  
وفهمه. غير أنني لا أزال متمزّما في  
نظر بعضهم عندما أصرخ قائلا: «لا  
أدب بدون قيم ولا قيم بدون أدب»...“

**المجلة:** «شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب»، هو البيت الذي علمنا أبجديات الشعر، إضافة إلى رسمه الصورة الأولية لهوية الجزائر

في أذهاننا. كيف تأثر جيلاني ضيف

وهو تلميذ يجلس خلف طاولة التمدريس بهذا البيت؟ وماذا يمثّل العلامة «ابن باديس» لكم؟

**الضيف:** لا أزال أذكر أن أول سؤال طرحته على معلمي الأول في مشهد جريء؛ كان عن هويّة هذا الرجل الذي ترك فيّ -كبيرا وصغيرا- أثرا متميزا، ولعل هذا الأثر لازمني طيلة حياتي، وكان قلبي وفيما لذكراه عندما كتبت عنه وبحثت في أسرار حياته الشخصية، وفي مراحل حياته الفكرية ونشاطه الإصلاحي. قلت في واحد من كتبي عن ابن باديس: «إذا





ذكرت العربية يُذكر معها ابن باديس، وإذا ذكرت الجزائري كان لزما أن نذكر ابن باديس أيضا.. هذا الرجل الأيقونة المشيرة والمبدلة على عبقرية هذا الشعب. فضل الرجل على العربية لا يدانيه فضل، وإذا كان سعى إلى تحرير العقول قبل تحرير الأبدان، فأنا أذكر له ميزة وميزة فريدة تُحسب له دون غيره، وهي أنه حرّر اللسان الجزائري من لؤثة الفرنسية».

**المجلة:** كمتقف عايش الأوضاع المزرية التي يمر بها العالم، كيف تقيمون الوضع الراهن؟

**الضيف:** المثقف بُعد إنساني متميز في كل مجتمع، يتأثرويوثر، ولا أبالغ عندما أذهب إلى القول بأنه بحكم دوره الطليعي في قراءة وتوجيه الواقع، يكون أكثر تأثرا وتفاعلا مع محيطه، خصوصا إذا كان هذا المثقف مستشعرا للمؤثرات التي تترك بصماتها على مواقفه وآرائه وتوجهاته. عالمنا المعاصر يتخبط في دوامة من الفوضى وعدم الاستقرار والاضمحلال القيمي. وعلى المستوى الشخصي أرى أن كثيرا من مشاكل الإنسان المعاصر ليست اقتصادية ولا سياسية ولا علاقة لها بالتطلع إلى الديمقراطية كما يروج السياسة وتنشر الصحافة، ولكن المشكلة تكمن في أن الإنسانية تجردت من فطرتها السليمة، وطلّقت روحها السلمية، وتخلصت مما يحقق التوازن. الإنسانية الموجوعة بالحروب والأوبئة والمجاعة والفقر والامية، لا يمكنها أن تجد حلولها في فوهات المدافع والدبابات ولا على منابر السياسة؛ وإنما في عودة الإنسان إلى إنسانيته.

**المجلة:** انطلق في الفترة الأخيرة برنامج تلفزيوني بعنوان «شاعر الجزائر»، خبّرني كيف إستقبلت هذه المبادرة؟ وما توقعاتك من مثل هذا البرنامج الأول من نوعه في الجزائر؟

**الضيف:** مبادرة محمودة إن هي استمرت واحتوت الجميع، والجزائر تملك أصواتا شعرية مميزة ومعتبرة، وأعتقد أن برنامجا كهذا سيكون له الأثر الطيب في الأوساط الشعرية، وأتمنى أن يتوسع يوما ليصبح «أديب الجزائر»، لأن المواهب كثيرة والأقلام التي تكتب في صمت كثيرة، وجدير بنا أن نسلط الأضواء الكاشفة حتى يعود للأدب الجزائري ألقه وحضوره.

الموضوعية تقتضي ألا نتعجل بالحكم على ما لم ير النور بعد، ومع ذلك أنا متفائل من منطلق ثقفي في عبقرية الإنسان

**المجلة:** بعد شكر حضورك معنا، ماذا يمكن أن يقول لنا المبدع جيلاني ضيف في كلمة أخيرة نختم بها هذا الحوار؟

**الضيف:** يصعب عليّ أن أنهي حديثا فتح لي فضاءً للتعبير عن جوانب مهمة في حياتي. والحقيقة أنني سعدت كثيرا بالحديث إليكم، وما أثر فيّ كثيرا هو نوعية الأسئلة التي حرّكت فيّ فضولا وفصولا من المشاعر والآراء.

أحبّ أن أختم هذا اللقاء بالإبانة عن اعتقاد راسخ في فكري ووجداني بعظمة الأمة الجزائرية وعبقريتها، وباعتزازي المطلق بكل ما يميز شخصيتها، واعتزازي أيضا بالانتماء إلى الأمة التي أنجبت «عبد القادر» و«ابن باديس» و«الإبراهيمي» و«مولود فرعون» و«مفدي زكريا». وأمنيّتي أن تظهر في حياتنا المعاصرة نسجٌ من هذه الشخصيات الرائدة المعطاءة، لأننا أحوج ما نكون إليها في هذه الفترة العصيبة من حياتنا.

كما لا يفوتني أن أقدم أصدق الثناء لمجلتكم الفتية وطاقمها الشاب الذي كسر جمود الحياة الأدبية المحلية، وحقنها بجرعة ليظهر فيها هذا المولود.. أشكركم كل الشكر، وأبارك مسعاكم وأدعولكم بالتوفيق والاستمرارية. [ها].

”المثقف بُعد إنساني متميز في كل مجتمع، يتأثر ويؤثر، ولا أبالغ عندما أذهب إلى القول بأنه بحكم دوره الطليعي في قراءة وتوجيه الواقع، يكون أكثر تأثرا وتفاعلا مع محيطه...”





لا توجد نخبة!

فالمبادئ أوهامٌ وفَرَاعَاتٌ، توضع  
لطرْد البسطاء - أمثالنا - من ساحة  
الحسم.. لأنَّ الحاجة مثلما كانت أمَّ  
الاختراع، فلقد حبلت بالخضوع لمن  
ملك العطاء!

معمّر عيسائي



بوعزّة أنيم

كلما أغمض عيني أسمعُ صوت  
القلب يتكسّر، لذلك لم أعد أنامُ  
إلاّ مستيقظاً!



حين يقترب رصيد الأمل من النفاد، ويضيق حالك ولا تكاد أنفاسك تنطلق،  
وتعتقد أنّ الجميع ضدّك، ولا أحد يفكر فيك؛ هكذا وبتدبير من الله، يأتيك  
الفرج في رسالة، نقطة من نور.. حينها إبتهج وتوجّه بالدعاء إلى الله لأنّه يقول  
لك: «أنا معك»!

أيوب بشيري

الفضيل بلعروسي

من الأمور الهامة التي تخفى على الكثيرين: مناجاة الله سبحانه.. أن يكون بينك  
وبينه حديث خاص، حوارٌ حصري، تشكّويه إلى الله همومك، تفرش بين يديه  
أمالك وطموحاتك، تسكّب أمام بابه دموعك، ندما على تقصيرٍ أو خطأ...

هنالك تيّارات فكرية في حقيقة الأمر  
هي مجرد نُخب (ضيّقة)، ومنها نخب  
التيار اليساري تحديداً، تمسك بكثير  
من مفاصل الإعلام والثقافة، وتُروّج  
لمريدتها في حين، تُقصي كلّ من يمثلُ  
الأصالة والقيم، ويعبّر عن عمق الأمةِ  
ووجدانها..

ب. ب. ب.



وصال جوّادي

من يعتاد العفوية،

يعيش في راحة تاركاً الناس لإثم الظنون!

م. م. م.

الحلم هو هدف  
لم نبغّه بعد،  
إن أدركناه عرفنا  
مقدار سخافته،  
وإن لم ندركه  
عرفنا مقدار  
سخافتنا!

عمر خزار

أيّها العدالة الغائبة، أرسلْ إليك نداءً استغاثةً عاجل.. إحداثياتي كما  
يلي:  
«خطُّ الطول: منتهى الصبر... خطُّ العرض: منتهى اليأس... الارتفاع:  
تحت مستوى الفقر... مكان التواجد: المدينة الظالمة»!





# المَقَالَات





# المقالات

## عن التعليم أتكلم...

رؤوف بن الجودي

قضيت سنوات من عمري، أكُون المتربصين في شتى البرامج والمهارات، اكتسبت -خلالها- خبرة معتبرة، مكنتني من استيضاح الرؤية بخصوص «طرق التكوين»، و«بيداغوجيا التعليم». وقد أفدت كثيرا من مطالعاتي في كتب «التنمية البشرية»، ومتابعاتي لدروس «علم النفس التحليلي»؛ في تطوير قدرتي على التغلغل في ذهنيات الطلاب، والوقوف على مواطن الضعف في الفهم الذي سببه في الغالب المنهجية المتبعة، والطرق العقيمة في بسط الدرس للطلاب.

إنَّ الكثير من المتصدرين يظنون -للأسف- أنَّ التعليم مهمة سهلة، أي بمجرد الحصول على المعلومة يُصبح هذا المتصدِّر معلِّما مستوفي الأدوات!

وفي واقع الأمر، إنَّ أهون المعلمين قدرا، مَنْ تكون بحوزته المعلومة مجردة؛ إذ امتلاك المعلومة ليس إلَّا شرطا مبدئيا، يتطلب شروطا أخرى، كي يتأهل المعلِّم بجدارة واقتدار لهذه المهمة النبيلة. ومن بين تلك الشروط أن يكون المعلِّم «بيداغوجيا»<sup>(1)</sup>، يسير على منهجية واضحة المعالم، تركز على الدرس النظري النوعي، وعلى التمارين التطبيقية المختارة بعناية.

### • بعض التعريفات لمصطلح «البيداغوجيا»

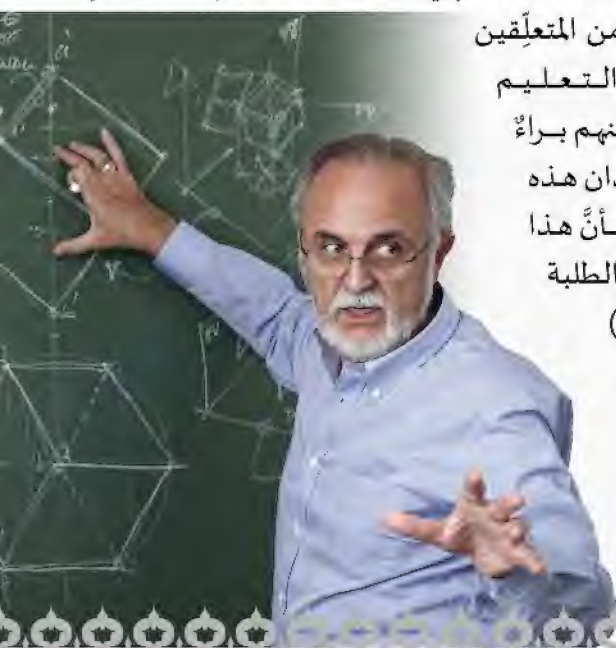
يُعرف إميل دوركايم «البيداغوجيا» على أنَّها: «نظرية تطبيقية للتربية تستمدُّ مفاهيمها من علم النفس؛ وعلم الاجتماع». في حين يصريح روني أوبرر بأنَّها: «ليست علما ولا تقنية ولا فلسفة ولا فنا؛ بل هي هذا كله منظَّم وفق تمفصلات منطقية»!

أمَّا بقية الدارسين؛ فيختصرون البيداغوجيا -بكلِّ بساطة- في «عملية إيصال المعلومة». فهذا التعريف على قصوره لا يؤدي سوى بعض معنى البيداغوجيا الحقيقي، لا كُلهُ.

### • إعادة النظر حول مفهوم «البيداغوجيا»

نرى أنَّ «البيداغوجيا» مهارة تربوية تبرزُ في القدرة على تبسيط المعلومة (الرسالة) في صورة مُفهمة، ثمَّ تبليغها للمتلقي، ثُمَّت التأكد من وصولها صحيحة إلى ذهن ذاك المتلقي. ولهذه المراحل الثلاث، تقنيات وآليات تتبع كلَّ مرحلة على حدة.

1- قلنا عنها أنَّها «مهارة تربوية» لأنَّ مهمَّة التعليم لا تتأتَّى لكلِّ أحد، فكم من المتعلِّقين بميدان التعليم والتعليم منهم براء بسبب فقدان هذه الموهبة، وكأنَّ هذا المائل أمام الطلبة (والتلاميذ) ليس فيهم إلَّا «تلميذ أكبر»!





- المتلقي (وهو التلميذ أو الطالب).



صورة 1: أركان الاتصال

فلكي تنتقل المعلومة من المرسل إلى المتلقي بطريقة صحيحة وسليمة؛ يجب أن يكون هذا المتلقي متحضرًا لهذا التلقي، بوجود نية للتلقي، مع التوافق في لغة الخطاب، إضافة إلى بساطة صورة المعلومة المتلقاة.

وفي هذه المرحلة -بالذات- يحصل استخفاف شديد بخصوص استيفاء هذه الأركان الثلاثة. فمثلاً: يُخطئ بعض المعلمين بإهمال عملية تحفيز الطالب، وذلك لما يُغفلون تحسيسه بأهمية تلك المعلومة أو الدرس الذي يشمل هذه المعلومة؛ كعدم تذكيره بفائدة ما يتلقاه في خاصة نفسه أو عدم التنويه بصلة المعلومة بغيرها من المعارف. في حين أنَّها الطريقة التي سيقرّر الطالب -من خلالها- أيتلقّى الدرس - أم لا.

يمثّل التوافق في لغة الخطاب شرطاً أساسياً، لتكون هنالك «ناقلية نوعية» تسمح بتمرير الرسالة التي تحمل في طياتها المعلومة المرغوب في إيصالها إلى ذهن الطالب.

فمثلاً: ليس من اللائق التخاطب بلغة أعجمية مع مَنْ لا يحسن سوى العربية، ولا التكلم بالأسلوب العلمي مع مَنْ لا يفقه المصطلحات العلمية المهمة، ولا مخاطبة الصغير بأسلوب مخاطبة الكبير، وهكذا..

3- وأخيراً قلنا: «التأكد من وصولها صحيحة»، وهذه المرحلة بالذات يُهمّلها أغلب المعلمين بالكليّة، بدافع الإسراع في الفراغ من الدرس -مثلاً- أو لظنه بأن التحقق من مدى استيعاب الطلاب ليس من صميم أمانة التعليم.. فلا يكون المعلم جديرًا

وهذه المهارة لا تكفي فيها الموهبة لوحدها؛ بل يجب تعزيزها بمكتسبات ذهنية ونفسية وتطبيقية؛ هنّ نتيجة خبرة ومراس في هذا الميدان. ويمكن قياس قيمة هذه الموهبة عن طريقة بعض المظاهر التربوية، ك: القدرة على الإلقاء، ووضع المنهجية، والتلخيص الغير المشين. وضرب الأمثلة... إلخ

وقلنا: «تبرّز في القدرة على تبسيط المعلومة في صورة مُفهمة»، لأنّ مجرد الإيصال للمعلومة بدون تبسيط، هو نقلٌ ساذجٌ لا مزية للمعلم فيه. ف«التبسيط» هو عملية هي نزولٌ إضطراري إلى مستوى الطالب، بحيث تصبح المعلومة وفهم الطالب على مستوى واحد، يسمح بحصول عملية الاستيعاب بشكل سريع وتام.

ولهذا التبسيط وسائلٌ منها: إعطاء أمثلة قريبة من ذهن الطالب ممّا يدور حوله من أشياء، ومما يدخل في قدرة تصوره وتخيلهِ، مشيّا على قاعدة «إثبات وجود الغائب بالشاهد».

فمثلاً: إذا أردنا أن نقرب للطلاب أجزاء الحاسوب من معالج (CPU)، وذاكرة حيّة (RAM)، وقرص صلب (2) (DISQUE) (DUR)؛ فإننا نصوّر له صورة الحاسوب المعقّدة في صورة بسيطة قريبة إلى ذهنه، فنقول له: تخيل أنّ لدينا مكتبة، ومكتبة بها كتب، ورجلا يريد المطالعة، فالرجل (يمثل المعالج) إذا أراد أن يُطالع كتاباً (وهو الملف الرقمي) يسحبه من المكتبة (وهي القرص الصلب)، ولمباشرة القراءة يفتح الكتاب على سطح المكتب (الذي يمثل الذاكرة الحيّة)!

وهناك طريقة أخرى أكثر نجاعة وأقل إرهاقا للمعلم من الأمثلة التقريبية السابقة، وهي تقنية «الشرح عن طريق الرسم»، وهي تقنية تتطلّب مهارات خاصة بالرسم لإنشاء ملخصات عبر أشكال وأسهم. فمثلاً يمكنك أن تعمل مختصراً للدرس الطويل بواسطة رسمٍ إنشائي واحد. ولقد استُغلّت هذه التقنية- في علوم اللغة التي اصطلاحوا على تسميتها بـ«تشجير المتن»، فاختصروا «متن الأجرومية» ومتونا أخرى في شئ العلوم على شكل شجيرة، ليتيسّر استيعاب مضمونها، ويسهل حفظه...

2- وقلنا أيضاً: «تبليغ المعلومة للمتلقي»، ولهذه العملية ثلاثة أركان:

- المرسل (وهو المعلم).

- الرسالة (وهي المعلومة).



بهذا اللقب في زعمي؛ ما لم يختبر فهم تلميذه، واستيعابه الثَّام للدرس. وهذا الاختبار لا يكون دائماً شفويًا مباشرًا (عن طريق السؤال أو الحوار)، بل هناك طرق أخرى أكثر تأثيرًا ونجاعة.

فمثلاً لو افترضنا تلميذاً «خجولاً»، وآخر «حافظاً»، وآخر -غير هذين- «فاهماً ذكياً». أجرينا طريقة الاختبار الشفوي على ثلاثتهم؛ سنجد أنَّ هذه المسألة الشفوية قد تُجدي مع الطالب الفاهم والحافظ، واحتمالاً كبيراً أنَّها لن تكون لها أيَّة نتيجة مع الطالب الخجول.. وبعد؛ قد لن نستطيع الفصل بين الطالب الحافظ، والطالب الفاهم الذكي، اعتقاداً منا أنَّ كليهما قد فهم الدرس!



صورة 2: مخطط يوضِّح المراحل الثلاث التي تمرُّ بها المعلومة

وفوق كلِّ هذا، على المُعلِّم أن يتضلع ببعض الأدب وثقافة عامة؛ يرقِّه بها عن الطَّلَبَةِ كي لا يسأموا درسه، وهذا -الذي أقول- ليس فضلة؛ بل شرطٌ بات أساسياً ومهمّاً لجعل المتلقين يقبلون على الدرس بكل همّة ونشاط... كما للمُعلِّم دور رئيس في توجيه ثقافة الجيل<sup>(5)</sup>، وفي تنشئتهم على الأخلاق الحسنة، والتربية السليمة المبنية على القيم الإسلامية الصحيحة التي تنبذ العنف والتطرف، وتميل إلى الصِّفح والتسامح؛ كما أنَّ له دوراً آخر في تقريب الكتاب من الطالب، وتوجيهه إلى قراءة كتبٍ نوعية تختصر له الطريق لتوسيع معارفه، وتمهِّد له الولوج إلى ثقافات العالم المختلفة.[اه].

فالطريقة التي يُعامل بها الخجول يجب أن تختلف عن الطريقة التي يُعامل بها الجريء، والطريقة التي يُعامل بها الذكي يجب أن تختلف عن الطريقة التي يُعامل بها الطالب المحدود.. فلكلِّ حالة نمطٌ معيَّن في التعامل معها...

لهذا نرى أنَّ يكتسب المُعلِّم مهارات معيَّنة، يتلقاها عن طريق دورات تدريبية خاصة، أو عن طريق الاطلاع على كتب متخصصة؛ كـ«قراءة الوجوه» و«لغة الجسد»<sup>(3)</sup>... التي تعطيه مُكنةً في تحليل نفسية الطالب، ومعرفة نمط شخصيته، وهذه المهارات ستغنيه عن السؤال، وستمكنه من تحديد السلوك المناسب في تعامله.

إنَّ هذه «البيداغوجيا»، مهما وصلت لحدِّ الكمال، إلَّا أنَّها تبقى بحاجة إلى النقد المستمر قصد تحسينها حسب متغيَّرات العصر، وما يطرأ من تطوُّرات تصيب الفرد (المرسل والمتلقي) وكذلك المعلومة (الرسالة) [انظر ما سبق].

#### • خلاصة

ولقد ركزت في مقالي على المُعلِّم دون غيره؛ لأنَّ مُستقبل التعليم منوطٌ به، ولن يصلح المعلمون إلَّا إذا صلَّح تعليمهم، «فالتعليم هو الذي يطبع المتعلِّم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته (...). فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم...»<sup>(4)</sup>.

(1) أو ما يُطلق عليها المفكر الجزائري مالك بن نبي «أسلوب التكوين».

(2) أو ما يسمى بـ«آلة نيومان».

(3) أقصد بالضبط «علم قراءة الوجوه»، وهو علم حديث أسس قواعده البروفيسور الأمريكي «بوول إيكمان».

(4) كتعريفه لمآثر السلف الصالح. وتحبيبه للوحيين (الكتاب والسنة). وترغبه في لغة الضاد...

(5) آثار الإمام ابن باديس، ج-2 ص217



## نحو تربية لغوية راشدة

جيلاني ضيف

قد يكون هذا العنوان غريبا بعض الشيء، لأن لفظة الرشاد ومشتقاته ترتبط في الغالب بمواضع الهدر أو سوء التصرف والإنفاق، لكن جانبا مهما يرتبط بهذه اللفظة وهو ما يتعلق بطرائق وآليات التربية اللغوية التي نوجهها لأطفالنا في البيت والمدرسة والشارع..

لأن مستوى هذه اللغة ودرجة نقائها وسلامتها، يقتضيان منا أن نعود إلى مراجعتها وترشيدها بما يتناسب مع غايات ومرامي تربية الطفل الجزائري عموما، بما في ذلك الجزء المهم وهو التربية اللسانية التي يبدو أنها لا تشكل أمرا ذا بال لدى العامة، رغم أن النظام التعليمي يسعى جاهدا لأن يكفل للمتمدرسين القدرة اللغوية التي تمكنهم من التواصل والتعبير والإفصاح عن مكنونات نفوسهم بأساليب وطرائق تعليمية، منها ما هو مؤثّر أكله، ومنها ما هو هجين دخيل لا يتناسب مع طبيعة اللسان العربي. وإذا كنا نتحسّر ونضرب كفاً بكفّ عندما ننظر إلى المستوى العام للخطاب اللغوي في المجتمع الجزائري من حيث القدرة على المشافهة والكتابة ومن حيث السلامة التعبيرية، فضلا عن إتقان التعبير، فإن ذلك مردّه إلى موقفنا ونظرتنا وكيفية تعاملنا مع جانب مهمّ من التربية وهو التربية اللغوية التي لا تُراعى إلا لماما في البيت والمدرسة، ويُتعاطى معها تعاظيا محتشما لا يشجّع على تكوين الفرد تكوينا لغويا صحيحا وسليما.

والأدهى والأمر أن أطرافا كثيرة تُسهم في عرقلة وتثبيط ما تقوم به المدرسة في مجال التنشئة اللغوية والتكوين الخطابي، وهذه الأطراف التي يفترض أن تكون داعمة لها؛ تتحوّل إلى مناقض في الفعل. ونذكر على سبيل المثال: «الإعلام» وما يقدمه من برامج تشدّ الأطفال في الغالب، وسنعرض ذلك لاحقا.

• اللغة أداة تواصل، بل أكثر

اللغة<sup>(1)</sup> باعتبارها أداة التواصل الاجتماعي، وباعتبارها الوعاء الذي يضمّ عناصر مهمة من حياة الفرد والمجتمع، هي

جانب مهمّ ومهارة ضرورية وأداة أساسية لا يحتاجها الأطفال للتواصل والاندماج في مجتمعهم فحسب، ولكنها الأداة التي تمكنهم من فهم ما يجري في محيطهم الأسري، أضف إلى ذلك أنها أداة التعلّم، وهي عند كل طفل تكتسي أهمية كبيرة بدليل أنه يتعلّمها منذ اللحظة الأولى من حياته.

ويجمع الباحثون المختصون في هذا الشأن أن الطفل يبدأ منذ الأشهر العشرة الأولى من عمره بتوظيف الأصوات التي تشكّل أساس الحصالة اللغوية التي سيقوم عليها شخصيته اللغوية، مع أنه سيتخلّى عن هذه الأصوات فيما بعد لأنه سيكتشف عدم جدواها. وإذا ما سألنا عن الطريقة التي يعتمدها الطفل في بناء لغته، فإن البحث يؤكّد أن ترديد المناغاة (وبعد ذلك التقليد والمحاكاة) أساس لغته، إذ يتمكّن من نطق كلمته الأولى غالبا- في عامه الأول، وهناك من يدّعي أن الطفل يظل معتمدا على تقليد الآخرين فيما يقولونه حتى سنّ السادسة. ويتوقّف نشاطه في تعلّم اللغة واختيار المفردات على عوامل عديدة، منها ما هو «عضوي» ومنها ما هو «نفسي»، ومنها ما هو اجتماعي أيضا، ويلجأ الأطفال إلى فتح حصالاتهم اللغوية وتنظيفها من الكلمات والألفاظ التي تثبت عدم نفعها أو جدواها أو التي يأبى العرف المجتمعي استعمالها، فيكون مصيرها أن تُترك لتموت.

لقد وجدنا الطفل يزداد تألقا ومضاء في تعلّم اللغة وجمع أكبر قدر من المفردات التي يتواصل بها مع الآخرين من خلال نشاطه الاجتماعي «الجمعي»، كما ألفيناه يجمع الغث والسمين من الألفاظ والكلمات دون مراعاة قاعدة معيّنة أو أساس لهذه الكلمات، وعندما نفتح حصالته اللغوية فإننا نجد فيها الغث والسمين وربّما نجد فيها الصحيح والعليل من

الألفاظ، كما نجد فيها اللفظ العربي والأعجمي، وهذا في الحقيقة مرآة عاكسة

للغة السائدة في مجتمعه، ولهذا نقول

إن لغة أيّ مجتمع يمكن معاينتها على

السنة أطلقاه، إذ إنهم يستجيبون لما

يتواصل به الناس في هذا المجتمع

دون انتقاء أو تزويق وتنميق

كما يفعل الكبار، فالطفل

في مراحل العمرية يتحدّث

على سجيته ويتواصل بهذه

اللغة التي يبدأ في تهذيبها مع



تقدّمه في السنّ واتساع مداركه الثقافية من خلال المشاهدة (الرسوم المتحركة والأشرطة والأفلام... إلخ) والاستماع، وكذا الدراسة.

إنّ حصالة الطفل اللغوية تمتلئ في مرحلة ما كأنيّ حصالة. وهذا ما يستدعي إفراغها وإعادة تعبئتها، لذا فإن هذه اللغة تكبر معه وفق المحيط والتحويلات الفكرية والثقافية الخاصة به أو بمجتمعه، وهذا ما يفسره اختلاف أساليب التواصل في المجتمع الواحد عبر فترات زمنية متباعدة.

#### • علاج التذبذب الحاصل في أطوار الطفل المختلفة

إنّ الطفل الجزائري اليوم يتعلّم اللغة العربيّة في المدرسة. ويتعلّمها أيضا في البيت عندما يجلس إلى شاشة التلفاز، ومن خلال هذه المشاهدة يأخذ الكثير من الألفاظ والمفردات التي يسمّعها ويخزّنها في حصالته<sup>(2)</sup>، ويتواصل مع رفاقه في الطريق والملاعب وفي المسجد أو المكتبة بهذه اللغة على نحو ما تعلّمه، وهذا مؤشّرٌ صحيّ مهمٌّ على أنّ العربيّة قدرُ هذه الأمة التي لم تتخلّ عن لغتها رغم ما لقيت من محاولات الفرّسة طيلة مئة وثلاثين عاما، وهو إحدى القرائن التي أقيمت عليها «استشرافي» أنّ الفرنسيّة لن تعيش في أرضنا أزيد من خمسة وعشرين عاما من الآن!!

وهذه الصّحوة اللغوية لدى أطفال الجزائر مؤشّر على أنّ اللغة العربيّة هي «اللغة الأمّ»، وهي أداة التخاطب التي يحرص الآباء والأمّهات والمربّون والأساتذة على دعمها وتأصيلها ودعم سربائها ورسوخها على الألسنة. وقد أكّد هذه الصّحوة اللغوية باحثون توصّلوا إلى أنّ اللغة التي يتواصل بها الأطفال في محيطهم الطفولي المدرسي أو الاجتماعي؛ لغة أرقى من اللغة المتداولة في نشاطنا اليومي وحياتنا العامة. وما يُخشى على حصالة الطفل الجزائري اللغوي أن تتغلّب عليها اللغة الشعبيّة التي لا تراعي قاعدة ولا قيمة في الغالب، كما نخشى عليها ألا يشجّعها بعض الآباء والأمّهات، وأن يتجاهلوا أهميّة وخطورة

الألفاظ والعبارات التي يتداولونها في البيت والشارع. وإذا كنا أشرنا إلى أنّ الطفل يشكل شخصيته اللغوية من خلال محاكاة الكبار، فهذا أدعى لأن نحرض على مراقبة كلامنا، والتأكّد من سلامته وموافقته للأداب العامّة والأعراف اللغويّة، خصوصا في أوقات الغضب أو الانفعال، لأننا قد نتقّوه بما سيكون خرابا على ألسنة الأبناء والبنات.

من السّذاجة والسطحية الاعتقاد أنّ اللغة وسيلة وأداة تواصل فحسب؛ فالحقيقة أنّها أوسع وأشمل من أن تكون للتحادث مع الغير فقط.. فاللغة تعني الحياة، وكلّ لغة هي نمط حياة وأسلوب عيش وخزان للفكر والإبداع.

الحصالة اللغوية للطفل هي خزّان ثقافي مهمّ ينبغي التشجيع على إثرائه وانتقاء القيم الثمينة التي تدعمه، وهذا من خلال مراقبة الخطاب اللغوي الذي يصل إلى سمعه، ومن خلال حثّه على أن يتحدّث ويبذل في هذا الحديث، وإفساح الفرصة له لكي يتعلّم من خلال النوافذ والفضاءات التي يثري بها لغته؛ كمشاهدة الرسوم المتحركة أو المطالعة أو الاستماع إلينا ونحن نقرأ له قصة قبل أن ينام.. ويرقى هذا التشجيع والتحفيز فيما بعد، ليصل إلى مستوى إغرائه وتثمين نشاطه في القراءة والمطالعة، وتنمية ثقته في نفسه، وهذا ما نسميه الجرأة الأدبيّة، وهذه مسؤوليات الأسرة والروضة والمدرسة والإعلام والشارع... إلخ.

إنّ حصالة الطفل اللغوية لا تشمل عملة واحدة هي الكلمات أو الألفاظ، بل تشمل كلّ جزئيات وأدوات اللغة، وهذا يعني أنها ثريّة وغنيّة تضمّ نتائج المراقبة والمحاكاة والنقد السمعي الذي يقوم به الأطفال في مجتمعهم، لذا فإنهم يختلفون في:

1. الثراء اللغوي، أي عدد الألفاظ والكلمات.
2. القدرة على فهم مدلولات اللغة، ونعني بها الفرق بين طفل وآخر في فهم وترجمة ما يسمعه أو يقرؤه.
3. الطلاقة<sup>(3)</sup> وسلامة التعبير، إذ ليس كلّ الأطفال يعبرون عن حاجاتهم مهما كانت بطريقة واحدة وبالمستوى ذاته من السلاسة والسلامة والبلاغة، فهناك من يوفّق بأقلّ عدد من الكلمات، في حين يعجز بعضهم عن الإبانة ولو تحدّث لوقت طويل.



4. الإبداع اللغوي، فالطفل يبدع في الكشف عن أفكاره وخصوصاً بعد سن الخامسة، لذا فإن فروقا كثيرة نلاحظها بين الأطفال في التعبير عن معنى معين أو فكرة ما، وهذا أمرٌ نتبيّنه بوضوح في المدرسة، إذ لو طلبنا من تلميذ الفصل الواحد أن يصفوا لنا مشهداً فإن الفروق ستكون كبيرة، تبعاً لعوامل ومعطيات كثيرة نسميها الفروق الفردية، وهي الألوان الإبداعية التي تميّز تعبيراً عن آخر.

#### • الواجب والمحظور في التربية اللغوية

لا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أنّ التركيز في تعليم اللغة على نمط تعبيرى أو بنية معينة يتحوّل إلى ظاهرة معيبة بعد أن يصبح تقليداً لغوياً لا يمكن تجاوزه، ولا بأس هنا أن نتوقّف قليلاً للإشارة إلى هذه الظاهرة اللغوية.

شكاً إلى عديد أساتذة اللغة العربية مشكلة لغوية تتكرّر في تعابير ومواضيع الإنشاء التي يكلّفون بها تلاميذهم. وهذه «الظاهرة» (التي لا ترقى إلى أن تكون مشكلة) هي تكرار عبارة «في يوم من الأيام» بداية كلّ موضوع مهما كانت طبيعته، لأنّ الغالب توظيف هذه العبارة في الفقرات أو النصوص القصصية ذات الطابع السردى. ولم أكن أحتاج إلى بحث في الموضوع لأنني عشت هذه الظاهرة خلال ثلاثة عقود من الزمن، والمتسبّب الأول فيها -عن حسن نيّة- هو المعلّم الذي يضع اللبنة الأولى

ليشرع «تلاميذه» في التعبير والإبداع، وهذا أمر أساسي يقتضي أن يضع أقدام تلاميذه على أول الطريق ليفتح لهم مسار وشهية الكتابة، وغالباً ما يكون سؤال التلميذ: «كيف أبدأ يا أستاذ؟»، «أنا لا أعرف كيف أعبر؟!». وغيرها من العبارات. وفي هذه الحالة يأخذ الطفل البريء هذا التوجيه على أنه قاعدة، ويتحوّل إلى تقليد



لا يمكن للطفل الصغير أن يتخلّص منه. وفي غياب التوجيه أو الإرشاد تظلّ هذه الظاهرة التعبيرية متداولة إلى أن يصل التلميذ إلى مرحلة التعليم المتوسط وهو مسلّح بهذه الآلية التعبيرية، وحينها يصطدم بملاحظات أستاذه الذي قد تعوزه الآلية لتصحيح هذا الانحراف تصحيحاً تربوياً سليماً، فتحدث مشكلة بأنّ معنى الكلمة وهي عزوف التلميذ عن التعبير!! لأنّ الأستاذ جرّده من مفتاح التعبير -في يوم من الأيام- وهو سلاحه الذي اكتسبه من معلّمه...!!

وفي مجال بناء اللغة وإثراء الحصالة اللغوية، ينبغي أن يساعد الطفل على تصفية الكلمات والمفردات الأجنبية ليتجنّبها، لأنّ جناية هذه المفردات على لغتنا العربية كبيرة، وتكاد تكون سارية ومنتشرة في مختلف المناطق من البلاد العربية. ففي الخليج نسمع كلمات: وايد (Wide)، ولوكس (Lux)، وفول (Full)، وأوكي (Ok)، وصوري (Sorry)،... وغيرها كثير، وهي مفردات إنجليزية. كما نسمع في مصر: نمرّة (Num-ber)، وستاد (Stadium)، واليوك (Book)، وسبورت (Sport)، وقول (Goal)، وغيرها من الكلمات. كما نسمع في الجزائر وتونس: أوبيتال (Hopital)، لابروميافوا (La Première Fois)، دوماج (Domage)، تري لوان (Très Loin)، وكل هذه الألفاظ الأجنبية الغريبة وغيرها كثير تتربع على ألسنتنا وتأخذ مكان الألفاظ العربية، وهذا يعني أنّنا مطالبون بتوجيه أبنائنا إلى ضرورة الابتعاد عن استعمال هذه الكلمات التي تجسّد تبعيتنا اللغوية للغرب، وبإيصال فكرة اللغة القومية والعقدية لأبنائنا ليفهموها ويتمسّكوا بها.

هنالك شيء مهم لا ينبغي التغافل عنه أو إهماله، وهو أنّ المراقبة اللغوية والإشراف على تكوّن ونشأة شخصية طفلنا اللغوية لا ترتبط برصدنا للكلمات التي تعلمها أو التي لا ينبغي أن يتفوّه بها، وإنّما ينبغي أن ترتبط بعضوية الطفل المرتبطة بلغته، وهي مسؤولية الوالدين في السنوات الأولى، ثم مسؤولية المعلّم الذي يجدر به أن ينبّه أولياء الأمور إذا ما كان أبنائهم يعانون من عوائق تؤثّر على قدرتهم اللغوية، وإذا لاحظ خللاً في النطق فقد يتدخّل الأطباء لمراجعة الموقف وتداركه.

إنّ الملاحظة والدراسات القليلة المتوقّرة تشير إلى أنّ الطفل الجزائري يتمتّع بقدرة معتبرة في مجال تعلّم اللغة، وهذا ما تكشف عنه المستويات اللغوية في المجال الدراسي، وإن كانت



المناهج اللغوية في حقيقة الأمر تعاني من قصور وعجز عن مواكبة حاجيات المتعلّم اللغوية، وهذا لا يتعارض مع واقع لا يستجيب لهذه الحاجيات. ومن أهم التحديات والمثبطات التي تشكّل عرقلة لمسار اللغة العربية، غياب سياسة لغوية واضحة، وتقايس أطراف مباشرة عن الاضطلاع بمهامها في هذا الشأن، وهذا ما يشكل عبئا على الطفل والمدرسة في آن واحد. وسنتعرض لهذا بالتفصيل في مجاله ومكانه.

إنّ الطفل الجزائري يمتلك مهارات لغوية عالية تقتضي منا أن نكون في مستوى الاحتياجات التي يتوجّب علينا توفيرها ضمن مقارنة تعليمية هادفة ترتبط بهويتنا وانتمائنا.

#### • خلاصة

وختاماً، لا بأس أن نذكر الجميع بأن تربية أطفالنا الجزائريين لغوياً لا تعني أن نتعامل معهم كبراميل نحشوها بالألفاظ والقواعد والغريب من البنيات، وإنما تعني أن نمكّنهم من التواصل بلغة سليمة بسيطة مهيّبة ترقى مع أعمارهم وتستجيب لحاجات التعلّم، ويشترط في هذه اللغة أن تنمي في نفوسهم مشاعر النبل والإبداع والقيم الإنسانية. كما تعني أن نحافظ على خصوصيتنا الجزائرية في لغتنا العربية، وأن تكون

هذه اللغة وجدانا وضميرنا.. نغضب لغضبها ونحزن لأسائها، وتكون حياتنا.. ولا أعتقد أن ذلك ممكن التحقق إلا إذا صيغت برامج منظومتنا اللغوية على أسس وقواعد متينة وصحيحة ضمن مقاربات مدروسة بعيدة عن الارتجال والشذوذ والعصبية. [أه].

(1) تضمّ المهارات التعبيرية (الفنيّة الإبداعية) من نحو وصرف ومفردات ورواية، والتعبير عن الحاجات والمشاعر وتبادل المعلومات، فضلا عن المهارات الاستيعابية، مثل اتباع الأوامر اللفظية (مع سلامة القدرة السمعية)، وفهم اللغة المحكية (الشفهية) أو المقروءة أو المكتوبة. ويشمل ذلك أيضاً فهم لغة الجسد والإشارة وتعبير الوجه والمعاني المبطنة والنكت والمجاز وغيرها.

(2) في طرفة نادرة استرعت انتباهي، أذكر أنّي سمعت طفلاً في المستشفى يستغيث بينما كان الطبيب يختنه، فيقول: «التّجدة أغيثوني!!» وكان يكرّر النداء وهو يبكي بكاء حارّاً، بينما كان غيره من الأطفال يشتم ويسبّ، وكان كلّ منهم يخرج من حصّالته اللغوية ما جمعه من مفردات.. فكان أن همس صديق في أذني: «أبشريا أستاذ، هذه نسخة جديدة من المعرّين!»

(3) الطلاقة: عامل للتواصل الشفهي، وهو ما يحتاجه ويعتمد عليه المستمع في فهم الرسالة الصوتية التي يسمعها، وينبغي أن تكون السرعة في الكلام مناسبة، ومشاكل الطلاقة تشمل السرعة البطيئة أو المتقطعة مثل التأتأة أو السرعة الزائدة.

## لساننا ورطانتهم (1)

أبو عبد الرحمن الجباري

قال ابن السبكي في «جمع الجوامع في علم الأصول»: «من الألفاظ الإلهية حدوث الموضوعات اللغوية».

وذلك أن الإنسان حيوان مدني لا يستقل بنفسه في تحقيق جميع مأرب الحياة، حيث إن الكثير مما يُحتاج إليه في عيشته لا يتأتى إلا من عمل غيره. لذا كان لزاماً عليه التواصل مع هذا الغير لتحصيل تلك المأرب، فيسر الله تعالى له ذلك بما علمه من البيان باللسان.

وقد مضت سنة الله في خلقه أن يتفاضلوا كيما يتميزوا

ويتكاملوا، كتفاضل الناس في الخلقة والخلق، وتفاضل الأمكنة في الجهة والعمران، وتفاضل الأزمنة في الحدوث والحوادث. هذه السنة ماضية كذلك في لغات المتكلمين ما بين فصيحة وأعجمية، وبين معربة ومبنية، وبين أصيلة وهجينة. وعليه فإننا نعرض فيما يلي كلمة مختصرة عن سمات اللسان العربي بالمقارنة مع اللغة الفرنسية التي تمثل إحدى أرقى اللغات المنحدرة من اللغة اللاتينية.

ومناسبة هذه الكلمة محاولة صد الهجمة التتريّة التي يشنها أعداء اللغة العربية من «المستغربين العرب» العاقين للغتهم الأم، الأبقين عن لغة القرآن إلى رق رطانة الأعاجم. بل إن



متطرفيهم يسعون إلى اعتماد الهذرة الدارجة الهجينة، فلا هم يُحَصِّلُونَ لغة أسيادهم ولا هم يحفظون لغة أجدادهم: مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

نقول لأهل الصلاة من أولئك: إن الذي حكم بأنه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ...﴾ [الأحزاب: من الآية 36]، هو الذي قضى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، و﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: 3]، فلماذا أنكم لا تعقلون وإما أنكم لا تؤمنون.

فإن كانت الأولى فأجيبونا: كيف لا نرضى للشؤون الإدارية والعلمية والأدبية في دنيانا من اللغة ما رضيه الله لنا في ديننا؟ وإن كانت الأخرى فنقول:

هل غركم القائل بأن لغة العجم أشدها للمبنى اختصارا وللمعنى انتصارا بما تتميز به من الإضافات السابقة (prefixes) واللاحقة (suffixes) للكلمة؟

اعلموا أن أدباء «الفرنسيين» لن يستطيعوا أن يترجموا لنا أول كلمة من قوله تعالى ﴿...أَنْزَلْنَاهُ مَكْثُومًا وَأَنْشَأْنَا لَهَا كِثْرَةً﴾ [هود: آخر الآية 26] في ثلاث كلمات من فرنسياتهم، فضلا عن كلمة واحدة وإن اجتمعت إضافاتهم السابقة واللاحقة وكان بعضها لبعض ظهيرا. فهذه الكلمة ضُمَّت فعلا وفاعلا ومفعولين وجواب شرط واستفهاما ولعقولهم إفحاما إن حاولت لفصيحها استعجاما.

أم لعلكم تعنون بالإضافات ما يكون في مثل «sourire» للتعبير عن التيسم، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ضعف هذه اللغة الأعجمية التي لا تملك لفظا خاصا «للتيسم» فاضطرت إلى تسميته «تحت الضحك». كما لجأت إلى نعت «الشعار» بكلمة «تحت

الملبس» = sou-vêtement ووسمت «الطرف» التي يُطَرَفُ بها القادم من السفر أهله بلفظ «تحت القدم» = souvenir.

أم هل غركم القائل بأن لغة الفرنجة أقرب إلى تحرير الفنون والعلوم من لغة «القانون»<sup>(2)</sup>؟

يعلم الجميع أن الرياضيات هي اللسان الناطق لجميع العلوم التجريبية، وأن الأرقام هي اللسان الناطق للرياضيات، ولكن ما يجمله الكثيرون أن هذه الأرقام عربية نسبا ومحتدا. فهل يُعقل أن لغة أنجبت لسان العلوم ستعجز عن احتواء حقيدها الصغير؟ هذا الحفيد الذي أنجبته من رحم حساب مواقيت الصلوات وتحديد القبلة والطريق في البر والبحر بالظلال والنجوم، وقسمة التركات، ثم أرضعته حل المعادلات ورسم المنحنيات (للخوارزمي)، وحساب جيوب زوايا المثلثات (لنصير الدين الطوسي)، وإبداع كيمياء الطلاء والمتفجرات (لجابر ابن حيان) وقوانين البصريات (لابن الهيثم) والتشريح وتحضير الأدوية في البيمارستانات<sup>(3)</sup> (ابن سينا وابن النفيس)، وتحديد جغرافيا الأرض وحركية المجتمعات (الإدريسي وابن خلدون)... ثم لما فُطم الصغير أرادوا أن يناوؤا به عن أمه الحصان الرِّزَّان (العربية) إلى أمهات عقيمت (الفرنسية، الإسبانية...)، كُنَّ إلى عهد قريب لا يكدن يفقهن حديثا.

أم هل غركم من يدعي أن مفردات لغات العجم في تطور وازدياد ومواكبة لتجدد مفاهيم العلم والمخترعات، أما العربية فجامدة هامة لا يُزاد فيها ولا يُنقص؟

فالجواب أن هذه دعوى حق، ذلك أن لغتكم فقيرة الكلمات ركيكة التراكيب لا تستطيع وصف ما يستجد من العلوم والآلات إلا أن يُزاد في معاجمها ما يُزِيل عُجْمَتَهَا إلى حين، ثم ما تلبث أن تعجز من جديد فيُعَاوَدُ أَهْلُهَا حَشْوُهَا بكلمات لم يسمع بها أجدادكم الأوائل، وهكذا دواليك إلى أن تندرس اللغة الأولى لطغيان ما أضيف إليها من التراكيب والكلمات.

أما العربية فرصيدتها الحافل بالكلمات والمعاني يُغْنِيها عن الاستزادة من غيرها إلا نادرا جدا، وحتى حين يزداد فيها شيء فإنه لا يخرج عن قواعدها الأصيلة، وبالمثال يتضح المقال:

إن سُئِلَ أحدهم: ما اسم كرة الحديد المحشوة موادَّ متفجرة والتي إن أُلْقِيَتْ من فوهة مدفع فاصطدمت بالأرض أحدثت انفجارا وتدميرا؟ فسيجيب أنها القنبلة، ولا

اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ



يكاد الناس يعرفون معنى آخر للكلمة «قنبلة» سوى ما ذكرنا، بل ويظنون أنها مستحدثة لم يعرفها العرب إلا منذ اختراع البارود، مع أن هذه الكلمة عتيقة أصيلة في لسان العرب وتعني «جماعة الناس أو الخيل - قيل بين الثلاثين والأربعين - الأشداء، ورجل قنبل أي الغليظ الشديد». قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وَكُنَّا مَتْنِي يَغْزِي النَّبِيَّ قَبِيلَةً  
نَصِلُ حَافَتَيْهِ بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ

فاستُعير معنى القوة والشدة لجماعة الخيل وسرعتهم لوصف الكرة القوية التفجير بما فيها من جماعة حبات البارود وغيره التي تنبعث منها في سرعة وشدة، فلم نحتج إلى ابتداع كلمة جديدة كمثل <sup>(4)</sup> «bombe».

ونظير ذلك كلمة «الهاتف» التي يقصد بها عند العرب «من يُسمع صوته ولا يُرى شخصه» <sup>(5)</sup>، وكانوا أحياناً يقصدون به الجنى الذي يُسمع كلامه دون أن يُرى فيقال عنه «هاتف من الجن». فانظر إلى مناسبة معنى هذه الكلمة لمسمى الجهاز الحديث الذي يستعمل في التخاطب بين الناس، في حين أن التسمية الأعجمية غير دقيقة تماماً لأن «Téléphone» تعني «الصوت عن بعد»، إذ يستطيع اثنان من الناس أن يكلم أحدهما الآخر من بعيد برفع الصوت وكل منهما يرى صاحبه، فلا يوجد معنى غياب شخوص المتهاقين إلا في اللفظة العربية. وصدق حافظ إبراهيم حين قال على لسان اللغة العربية:

وَسَمِعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً  
وَمَا ضَمِنَتْ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتٍ

فَكَيْفَ أَضْيَقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ  
وَتَنْسِيْقُ أَسْمَاءَ الْمُخْتَرَعَاتِ

أَتَا الْبَحْرَ فِي أَحْشَائِهِ الدَّرَكَا مَن  
فَهَلْ سَاءَ لَوْ الْغَوَّاصُ عَنْ صَدَقَاتِي

وهنا قد يعترض أحد المستغربين قائلاً: فكيف تسمون «Internet» بعريبتكم الأصيلة؟ فلا يوجد لفظ في معناها عند العرب الأوائل، ولا تقولوا بأن كلمة «إنترنت» ستفي بالغرض لأنها ليست سوى ترجمة صوتية لمصطلح «Internet». وهل تستطيعون إلى ترجمة «Technologie» سبيلاً؟

فتقول: على الخبير سقطت، فليست تسمية المخترعات قاصرة على الاستعارة المعنوية فقط (كما قد مثلنا بكلمتي

«القنبلة» و«الهاتف» آنفاً)، بل هنالك سبيلان آخران في هذا الصدد، ألا وهما: الاشتقاق والنحت.

فأما كلمة «Technologie» فيقال لها «التَّقَانَةُ» بالاشتقاق من «تَقَنَ» أو «الْقِيَانَةُ» بالاشتقاق من «قَان» (يقال «قَان الحديد» أي صنعه وسوّاه، و«الْقَيْنُ» بسكون الياء هو الحَدَاد، ثم أطلق على كل صانع <sup>(6)</sup>)، كما يقال صان/صيانة ودان/ديانة.

أما عن «Internet» فسبيل ترجمتها النحت من كلمتي «الشبكة العنكبوتية» فنقول «الشنكبوتية» تماماً كقولنا «البسملة» نحتاً من «بسم الله» و«الحوقلة» نحتاً من «لا حول ولا قوة إلا بالله» و«الحيلة» نحتاً من «حي على الصلاة»، وكلها معروف متداول عند العرب. بل إن الترجمة العربية لها ميزة الصرف مع مختلف الضمائر والأزمان، فنقول «شَنَكَبْتُ وَأَشَنَكَبْتُ» في حين أن العجم يقولون «je me connecte à internet» أو «je surfe sur internet» لأن الفرنسية لغة مبنية غير معربة (انظر التفصيل أدناه). وأما عن استئصال أذن السامع لهذه الكلمة فمرد ذلك إلى عدم التعود على استعمالها، وكذلك حال من لم يستعمل كلمة «الحيلة» قط فإنه يستهجنها، مع أنها وردت عن عربي سليقي كعمر بن الخطاب رضي الله عنه <sup>(7)</sup> الذي يقول بلسان حاله للمستغربين المستهجنين للسان العربي:

وَلَسْتُ بِنَحْوِي يَلُوكُ لِسَانَهُ  
وَلَكِنِّي سَلِيْقِي أَقُولُ فَأَعْرَبُ

وبعد أن يستنفد المستغرب ما في جعبته من الشبهات ضد لغة الضاد، فإنه يلجأ إلى أسلوب التهكم والاستهزاء جهلاً منه بعواقب ذلك عليه -فينقلب السحر على الساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى- فيقول:

إن كانت اللغة العربية كما تصفونها من القوة والجمال، فلماذا تعاني الهجر في وقتنا الحاضر حتى من أهلها الذين هم من أكثر شعوب العالم تخلفاً في مجالات العلوم والحضارة؟ هل -بأسلوب تقريرى مكرر- لكونها صعبة التعلم لما فيها من قواعد النحو والصرف المعقدة؟ أم لكثرة مفرداتها ومعانيها التي لا يكاد يُلم ببعضها إلا القلة من الناس؟ أم لكونها جامدة عبر العصور لم تتطور أساليبها ولا رسم حروفها كما حدث مع اللغات «الحية» <sup>(8)</sup>؟

الجواب مُجملٌ ومفصّلٌ، فنقول إجمالاً:

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّاتِي أَوَّلُ بِهَا  
كَانَتْ دُئُوبِي فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ <sup>(9)</sup>



الجدول أدناه، لأن كل كلمة فرنسية مبنية على نسق جامد لا يوحي بدورها في الجملة.

الجملة العربية	الدلالة السياقية	الترجمة الفرنسية
محمدٌ منح خالدًا كتابًا	يجهل المخاطب المانح	Mohamed a donné à Khaled un livre
خالدًا منح محمدٌ كتابًا	يجهل المخاطب الشخص الممنوح	Khaled a eu un livre de la part de Mohamed
كتابًا منح خالدًا محمدٌ	يجهل المخاطب الشيء الممنوح	Un livre a été donné à Khaled par Mohamed
منح محمدٌ خالدًا كتابًا	يجهل المخاطب الفعل ثم القاعل	الترجمة متعذرة
منح خالدًا محمدٌ كتابًا	يجهل المخاطب الفعل ثم المفعول	الترجمة متعذرة
محمدٌ خالدًا منح كتابًا	يجهل المخاطب القاعل ثم المفعول	الترجمة متعذرة
كتابًا منح محمدٌ خالدًا	يجهل المخاطب الشيء الممنوح ثم القاعل	Un livre a été donné par Mohammed à Khaled

نظرا لعدم وجود الإعراب في الفرنسية فإن كل كلام عربي مبتدئ بفعل أو باسمين متوالين -فاعل ومفعول به مثلا- لا يمكن ترجمته إلى الفرنسية إلا إذا عُبِّر عنه بكلمات كثيرة لتبيان الدلالة السياقية للكلام العربي.

• عن كثرة المفردات: لم أر الغنى عيبا سوى عند المستغربين -أذئاب المستشرقين- حين يستنكرون على اللغة العربية سعتها في الألفاظ! ما أشبه مقاتلهم هاته بما قاله قوم سدوم للمؤمنين من آل لوط **الطَّيِّفَاتُ** ... أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ (النمل: آخر الآية 56)!

إن كثرة المفردات في العربية تمنح المتكلم مجالا واسعا لاختيار الكلمات المناسبة لمقتضى حال المخاطب، فيؤدي المعنى المراد في أقل الكلام وأدله. إضافة إلى أن الكلمات المترادفة الدالة على معنى واحد في الظاهر، تتباين فيما بينها لكون كل منها يحمل دلالة دقيقة تنحو بالمتكلم إلى أن يوظف لفظا بعينه دون غيره لتأدية الغرض البياني المقصود.

إن «السنة» و«العام» و«الحول» و«الحِجَّة» تدل على معنى مشترك ألا وهو المدة الزمنية الموافقة لمُرور اثني عشر شهرا، غير أن كلا منها ينطوي على دلالة معنوية ملائمة لسياق دون سياق.

وأما التفصيل عن ما يتعلق بالإعراب وكثرة المفردات وثبات الخط العربي فإليك:

عن الإعراب: إن الإعراب -الذي هو موضوع علم النحو- من أهم ما يميز اللغة العربية عن سائر اللغات الأخرى، لا سيما اللغات اللاتينية -كالفرنسية- التي هي لغات مبنية لا تحتل ألفاظها الإعراب. فإن كان لكل كلمة مدلول في ذاتها -وهو ما يوجد في المعاجم مقابل كل كلمة من المعاني- فإنها تكتسب دلالة معنوية إضافية عند إعرابها ضمن سياق الكلام. فلنشرح الفرق بين مدلول الكلمة ودلالاتها من خلال الجملة التالية:

الجملة (01): «محمدٌ منح خالدًا كتابًا» تترجم إلى «Mohamed a donné à Khaled un livre».

المعنى واضح ومتطابق في الصيغة العربية وترجمتها بالفرنسية. لكن السياق العربي يحمل دلالة أخرى وهي أن المخاطب بهذا الكلام يعرف أن كتابا قد مُنح لخالد لكنه يجهل المانح إن كان والد خالد -مثلا- أو الأستاذ أو المكتبي أو بائع الكتب، فنقول «محمدٌ منح خالدًا كتابًا» بيانا لهوية المانح.

سيقول القائل: وكذلك الصيغة الفرنسية قد تحتل نفس الدلالة، فنقول: لنفترض الآن أن المخاطب يعرف أن محمدا قد فعل أمرا لخالد بخصوص الكتاب، ولكنه لا يدري ما هذا الفعل إن كان قد أسلفه الكتاب -مثلا- أو باعه إياه أو ابتاعه منه، ففي هذه الحال لا يصلح أن نستعمل الجملة (01) بل نقول:

الجملة (02) «منح محمدٌ خالدًا كتابًا» مبتدئين بذكر الفعل لأن ما بعده معروف لدى المُتلقِّي. فماذا عسى ترجمة الجملة (02) تكون بالفرنسية؟ لا توجد سوى الصيغ التالية:

Un livre a été donné à Khaled par Mohamed

Un livre a été donné par Mohammed à Khaled

Khaled a eu un livre de la part de Mohamed

ولا تشير أي من هذه الصيغ إلى دلالة بيان الفعل الذي أداه محمد تجاه خالد بخصوص الكتاب، بسبب أنه يستحيل أن يُبتدأ بفعل في اللغة الفرنسية إلا في صيغة الأمر «mode impératif». وعليه فإن اللغة الفرنسية تعجز عن ترجمة الجملة (02) مع الإبقاء على دلالتها السياقية. بل الأدهى من ذلك أن كل الصيغ الممكنة لهذه الجملة باللغة العربية لا تستدعي سوى تغيير لترتيب الكلمات. لأن كل كلمة عربية تحمل صفتها من فاعلية أو مفعولية أو إضافة بفضل إعرابها<sup>(10)</sup>، بينما تتغير كلمات الصيغة الفرنسية حذفًا وزيادة وتركيبًا كما هو مبين في



بتمامها.

نبئونا الآن كيف ستعبر الفرنسية -الفرنجية- عن هذه المعاني الدقيقة «للسنة» و«العام» و«الحول» و«الحجة» بالترجمة اليتيمة «année» ؟

عن ثبات الرسم العربي: لا تكاد تجد لغة من اللغات المتكلم بها اليوم إلا وهنالك من يؤرخ لبدايتها مذ صارت إلى شكلها المنطوق والمكتوب المعروف، عدا اللغة العربية، فإنها ضاربة في عمق التاريخ. يقول مرجليوث الأستاذ بجامعة أوكسفورد: «اللغة العربية لا تزال حية حياة حقيقية، وإنها إحدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرها كالإنكليزية والإسبانية، وهي تخالفهما بأن زمان حدوثهما معروف ولا يزيد عمرهما على قرون معدودة. أم اللغة العربية فابتدأها أقدم من كل تاريخ».

أما عن اللغة الفرنسية فيمكن أن نقول إنها لا تزال في مرحلة الحضانة مقارنة باللغة العربية الناضجة اليافعة، وليس هذا بالكلام الإنشائي المرسل، بل هو حقيقة لا مرأى فيها كما يظهر مما يأتي.

إليك نصا من أقدم النصوص التي كتبت بالفرنسية القديمة حين بدأت تتمايز عن اللغة اللاتينية. فهلّموا يا أهل الاستغراب إلى قراءته وشرحه لنا، علما أن كل الحروف يجب أن تنطق:

(bons fut li secles al tens ancienur

tut est müez, perdut ad sa colur:

amfant nus done ki seit a tun talent).<sup>(11)</sup>

بعد أن عجزتم عن قراءتها قراءة صحيحة فضلا عن فهمها، دعونا نترجم لكم هذا النص الفرنسي إلى اللغة الفرنسية:

(Le monde fut bon au temps passé,

Tout a changé, a perdu sa couleur:

Donne-nous un enfant qui soit selon tes désirs).

في المقابل، هل يعجز طفل في المرحلة الابتدائية عن قراءة هذا النص العربي:

ولـيـل كـمـوج البـحـر أرـخـى سـدولـه  
عـلـى بـأنـواع الـهـمـوم لـيـبـتـلـي

ألا أيها اللـيـل الطـويلُ ألا أنـجـي  
بـضـبح وما الإصـباح مـنـك بـأمـثـل

فبستعمل لفظ «السنة» في حال الشدة والضيق، في حين أن لفظ «العام» يدل على الرخاء والخصب واليسر، ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُونَهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾<sup>(١٧)</sup> ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾<sup>(١٨)</sup> ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾<sup>(١٩)</sup> **أيوسف: 47-49** ، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا... ﴾ **[العنكبوت: من الآية 14]** ، إذ كابد نوح **عليه السلام** مشاق الدعوة إلى الله مدة 950 سنة ثم أهلك الله أعداءه بالطوفان، فعاش نوح **عليه السلام** بعد ذلك 50 عاما مع القلة المؤمنة الناجية في يسر وسلام.

أما «الحول» فيصبح أن يكون من «التحول» فيقال حينئذ عند تبدل الحال بعد انقضاء مدته، أو من «الحيلولة» فيقال عند تعرض مانع يحول بين المرء وما يروم بلوغه. مثال الأول قوله تعالى ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرَّضَاعَةَ... ﴾ **[البقرة: من الآية 233]**، لأن انتهاء الرضاع يؤذن بدخول المولود مرحلة الفطام. ومثال الثاني قوله تعالى في عدة الأرملة ﴿ وَصِيَّةٌ لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ... ﴾ **[البقرة: من الآية 240]**، إذ إن مدة العدة تحول بين المرأة وبين أن تنكح زوجا آخر إلى أن تنقضي عدتها فيجوز لها إذاك أن تتزين للخطاب.

أما لفظ «الحجة» فيدل على تمام الأشهر الاثني عشر للسنة من غير نقصان، ومنه قول لبيد **رضي الله عنه** في معلقته:

وَمَنْ نَحْرَمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنْيْسِهَا  
حَجَّ حَلَالُونَ حَلَالُهَا وَحَرَامُهَا

أي أن الأطلال قد مرت عليها سنوات بأشهرها الحُرْم والحلال كاملة غير منقوصة.

والملاحظ أنه لم يأت ذكر «الحجة» في القرآن سوى مرة واحدة في سورة القصص في قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَّاجٌ ﴾ **[القصص: من الآية 27]**، في مقام إحكام شرط عقد الزواج بين موسى **عليه السلام** وابنة الرجل الصالح من أهل مدين، فناسب استعمال هذا اللفظ في هذا الموضع لكون ضبط شروط التعاقد يكون عادة محلا للمشاخة بين المتعاقدين، فيحرص كل طرف على أن يستوفي شرطه كاملا، كما صنع ولي الفتاة ههنا إذ أكد لموسى **عليه السلام** على أن يرى له الغنم ثمانين سنين



علما أن صاحب هذين البيتين، هو الشاعر الجاهلي امرؤ القيس، قد هلك قبل خمسة قرون من هلاك صاحب النص الفرنسي المذكور أعلاه الذي يعجز عن فهم نصّه الفرنسيون أنفسهم!

قد يعترض أحدهم -يائسا-: إن النص الفرنسي الذي استشهدتم به مجتزأ من سياقه حيث إنكم تعمدتم اختيار أصعب فقراته لتهتموا الفرنسية بالتبدل والخلق عبر الزمن.

فنجيب: ما تقولون في نص كامل غير مبتور قد كتب بعد أربعة قرون بعد النص الأول؟ فإن استطاع جهابذتكم فك طلاسمه فالأمر كما تقولون، وإلا فإن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل:

(Roy sanz lettres comme un asne seroit

S'il ne sçavoit l'Escripture ou les loys,

Chacun de ly par tout se moqueroit;

Thiès doivent savoir, latin, françoys,

Pour miex garder leurs pas et leurs destrois

Et sagement à chascun raison rendre).<sup>(12)</sup>

وهاكم الترجمة الفرنسية للنص المكتوب بلغتكم الفرنسية:

(Un roi illettré serait comme un âne

s'il ne connaissait l'écriture ou les lois,

car partout chacun se moquerait de lui ;

les Allemands doivent connaître le latin et le français,

pour mieux conserver leurs droits et leur juridiction

et que chacun rende justice avec sagesse).

ثم يُعرب المستغرب ويُزيد وقد أسقط في يده مما سبق ذكره، فيصيح قائلا: شعر امرئ القيس لن يقرأه أحد لو كتب بالخط العربي القديم من غير تنقيط ولا تشكيل، فالتغير في رسم الكلمات ليس حكرا على الفرنسية كما تزعم!

إن التنقيط والتشكيل إنما أضيف ليميز الحروف عن بعضها فحسب، أما الكلمات نفسها فلم يصحبها أدنى تغيير إذ بقي رسمها ثابتا عبر الزمن، بخلاف فرنسيتكم حيث إن الكلمات «lui ; roi ; temps ; désirs» كانت قيما مضى «ly ; roy ; tens ; talent»!! فأين هذا من ذاك؟

وأزيدك من الشعر بيتا: إن التنقيط والتشكيل قد أضيفا إلى الخط العربي في القرن الثامن للميلاد، بينما انتظر الفرنسيون

العام 1762 (القرن الثامن عشر للميلاد) ليميزوا بين الحرفين «i ; j» والعام 1964 ليضيفوا الحرف «w» إلى الأبجدية الفرنسية!! وحتى في عصرنا الحاضر فقد تم في العام 1990 تغيير أزيد من 1500 كلمة في المعاجم الفرنسية!! فإن فرضنا جدلا أن التغير قد شمل العربية والفرنسية معا، فيكفي العربية فخرا أنها سبقتكم إلى ذلك بألف عام.

#### \* خلاصة

وفي الأخير، فإن العتب ليس على من تنكّر لأصله وشوه هويته من العرب المستغربين، ولا على من تحزّب وتألّب ضد العربية من الغربيين المستشرقين، وإنما العتب كله على أولئك المتفرجين المستسلمين لغزاة الفرنجة الذين يُغيرون على حرمان تراثنا المجيد وتاريخنا التليد ثم ينقلبون إلى أهلهم سالمين فكّهين. «فوا عجباً من جدّ هؤلاء في باطلهم وفشلهم عن حَقِّهم! فقبحا لكم حين صرتم غرضا يُرمى، يُغار عليكم ولا تُغيرون، وتُغزون ولا تُغزون، وتُستباح ببيضتكم وترضون». ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. [اه].

(1) بسند صحيح عن الفاروق رضي الله عنه: «لا تعلموا رطانة الأعاجم» رواه ابن أبي شيبة (6/208).

(2) «القانون» كتاب لابن سينا في الطب والذي ظل مرجعا لجامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر للميلاد.

(3) اليمارستان: هو «المستشفى» بلغة الحاضر، وأول ما ظهر كان في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد.

(4) bombus في اللاتينية تعني الصوت العالي.

(5) عن لسان العرب (بتصرف).

(6) عن لسان العرب.

(7) صحيح مسلم، من حديث «فضل القول كما يقول المؤذن كلمة كلمة».

(8) صدق وهو كذوب، فإن اللغات الأعجمية لغات حية بل «حيات» تحاول عبثا أن تنفث سمومها في لغة العرب وتراثهم المجيد.

(9) عن البحري من قصيدته التي مطلعها:

في السَّيِّبِ رَجُورٌ لَهُ، لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ  
وَوَاعِظٌ مِنْهُ، لَوْلَا أَنَّهُ حَجَرٌ

(10) قال ابن الحاجب في كافيته: الرفع علم القاعلية، والنصب علم المفعولية، والخفض علم الإضافة.

(11) مقتطع من (1040) «La vie de saint Alexis» Poème de

(12) Le poète Eustache Deschamps (1407).



## أصداء ندية من سيرة خير البرية

### دليلة مكسح

ما أحوج طالب المعرفة والمنظر لها إلى نماذج يقتدي بها في مسيرته المعرفية، وإلى خطط وإجراءات تمكنه من سلوك طريق البحث والمعرفة سلوكاً سليماً، رغم العقبات والعثرات. وليس هناك أجل ولا أفضل من السيرة المحمدية، التي تتجلى فيها قيم راقية وجكم جليلة يمكن التزود بها في رحلة الحياة، ومنها رحلة طلب العلم والمعرفة.

إن تقليب النظر في سيرة الرسول ﷺ، يكشف عن منافذ تقود إلى استنباط قيمة العلم، وأهميته، وكيفيات طلبه وتحصيله. والمتأمل في هذه المسألة يجد أن النبي الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم، بدأ مسيرته الدعوية وفق سلوك عرفاني خالص، هداه الله إليه، وبسرله من خلاله سُبُلًا تكفل له صقل شخصيته، ومنها القيام بمهمة النبوة، ونشر الدين الإسلامي، والتعريف به، وهي مهمة شاقة لا ريب؛ لكنها تفتتق عن مبادئ سامية، تثير في نفسية طالب المعرفة الحوافز التي تمكنه من سلوك طريقه بنفس وثابة، وروح متحمسة.

لقد بدأت مسيرة النبي محمد أول ما بدأت بالخلوة<sup>(1)</sup>، ولم تكن عزلته مدعاةً للنوم والكسل، بل كانت تجنباً للناس بغية التعبد، وفي سبيل التدبر والتأمل، والانقطاع للسؤال وتقليب الأمور، وهي خطوة مهمة، وعميقة الأثر في النفس والذهن؛ لأنها قادت خير البرية إلى ما فيه الصلاح، وتلك مَكْرُمَةٌ من الله العلي القدير، لم تتحقق للرسول إلا بشق النفس والتدبر حتى حصل اليقين، مما يكشف لنا -أيها القارئ الكريم- أن الحصول على المعرفة لا يكون إلا ببذل الجهد، والتأمل، والتدبر، وطرح الأسئلة، وتقليب الأمور من وجهات مختلفة، ويتطلب ذلك لحظات من العزلة، ولو كانت فترات؛ لأن بلوغ مرتبة اليقين يحتاج إلى صفاء الذهن، وهدوء النفس، ولا يتحقق ذلك إلا بالخلوة النافعة.

ثم إن الرسول الكريم بعد الانعزال المتكرر، جاءه اليقين من خلال إمداده بالوحي. وذلك الوارد الذي جاء به جبريل عليه السلام، إنما تحقّق بمعونة الله وتقديره وتديبره. وعليه، فليعلم طالب العلم أن حصوله على اليقين، إنما هو في الأصل إمداد ومِنَّة من الله سبحانه وتعالى، ولكنها منة لا تحصل للكسالى، بل للجادين والمثابرين الذين يبذلون قصارى جهودهم.

والحصول على اليقين بعد طول تدبر، وتأمل، وعزلة خدمية للذهن والنفس، يحتاج إلى خطوة أخرى تستشّقها جلياً من سيرة الحبيب المصطفى ﷺ. وهي خطوة التريث قبل نشر ما حصل عليه من اليقين الذي لم يُسبق إليه، وتقليب احتمالات إذاعته بين الناس والمهتمين، والنظر فيه بعمق، والاحتناع به قبل تحصيل إقناع الآخرين. فالرسول الكريم لم يُذِعْ أمر الوحي إلا لأقرب المقربين، وهي خديجة بنت خويلد زوجته رضي الله عنها وأرضاها<sup>(2)</sup>، ولم ينشر ذلك بين الناس إلا بعد إعداد العدة المناسبة مادياً ومعنوياً.

لقد بدأ الذبوع في إطار ضيق، ليتسع بعد ذلك إلى ما شاء الله، وهي خطوات نيرة ومهمة لمن أمدّه الله بمعرفة فيها الصلاح والفلاح، إذ عليه أن يشتغل على إقناع نفسه أولاً بجِدْوَى تلك المعرفة، والنظر في قيمتها بمشورة أقرب المقربين إليه، أو لمن يمكنهم أن يعينوه بخبرتهم وحكمتهم، ثم السعي إلى نشر أفكاره بين الناس من متطلق ضيق إلى آخر واسع.

إن قيمة البحث المعرفي لا تتحقق إلا بما ذكرناه آنفاً، وعلى طالب العلم المواظبة على التزود من المعارف، وعدم الاكتفاء منها بالتلقين فقط، بل يعدّ نفسه لتحقيق الفاعلية، بإضافة الجديد إليها والنافع، عبر تدبر الواقع، وظروف العصر المعيش، وتكثيف عملية القراءة التي لا تعني تصفح كتاب فقط، وإنما تتجاوز ذلك إلى فعل التأمل، والتعمق في الظواهر بالسؤال والحوار، وبهذا يكون الطالب قد حقق أمر الله فيه حين قال في محكم تنزيله: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ [العلق: 1-5]. فتتجلى فيه روح القراءة والعبادة معاً. [اه].

(1) الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير: الفصول في سيرة الرسول ﷺ. تحقيق: محمد العيد الخطراوي، محي الدين مستو. مؤسسة علوم القرآن. بيروت، دمشق، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة. ط3. 1402-1403 هـ. 1981 م، ص 95.

(2) المرجع نفسه: ص 95، 96.



## قراءة بعيون ذاهلة

عبد الله لالي

الرَّمْل طار لقعر بئر في السَّما  
والنَّوم نَام، وميت يتحسَّن  
حذقة نقدية :

عندنا هنا ثلاثة فضاءات مكانية :

- رمال طائرة (فضاء الجذب والمحول).
- بئر (فضاء مخزون المياه المحجوبة).
- السَّما (فضاء الميتافيزيقيا المغيب عن الإنسان).

وبغض النظر عن الكاتب (الميت في النص): فإن المتن المقروء وحده يفضي إلينا بكثير من البوح، والرؤى المغيبة في فضاء المجهول!! إذا ضاق الفضاء المكاني (المنظور) لجأ الإنسان إلى الفضاء (المكاني) المغيب!

قد يكون هذا ما أراد الكاتب قوله، وربما أراد غيره، ومن ثمّ فقد فتح نصّه على احتمالات كثيرة ومتنوعة: الأمر الذي يبعث في القارئ الدهشة والذهول، ويُمكنه من إنتاج نصّ موازٍ للنصّ الأصلي، أو يكون مخالفاً له تماماً، ولا صلة له به.. المهم أن النصّ تموقع حافزاً على إنتاج نصّ جديد..!

وأيقظني من هذه الحذقة النقدية والغرق في «رمال» هذا الشعر الفائرة، جوابٌ جهيّزة (الغجيرة) التي قطعت تخرّصات كلّ ناقد (سفساف)، وجاء جوابها مفحماً حين مرّت في نسوة في «سوق النّساء» وسمعت هذيان هذا الشاعر الحدائي جدّاً (على نهج أدونيس الجزائر<sup>(3)</sup>)، فقالت بلسان الأمير:

مرّت نساء.. قهقهت غجيرة  
قالت: «وشعرك مثل فكرك متنّ

وإذا تحسّن سوف أحلق شاري  
وأصير أحفظ بعضه وأندنّ

هذا هو «الشعر الجميل»، وأومأت  
لقصيدة من شاعر يتفتّن

وأشرق نور الشعر الخليلي (يُهيّل) كلّ ناقد حدائيّ مدجج  
بأدوات النقد (المفبرك) فقال:

خطرت بيالي فجأة عيناها  
وأنا الذي حاولت أن أنساها

...وأنا أقرأ ديوان «الساعر»<sup>(1)</sup> للأمير، استوقفتني نصّ شعري «مربك» قرأته وأعدت القراءة.. ثمّ ضحكت.. ثمّ أشرقت كلمات بين جوانحي، فأحببت أن أسودّها على الورق حتى لا يذهب شذاها.

في «سوق النّساء» حيث كان للشعر نصيب موفور، يقول المؤلف: «وكان مما رآه الشاعر في السوق شاعر فارسيّ يرطن بما كان عند العرب عيب عجمة.. حين كانت الضّاد قشبية مزهّوة»..

ومما قاله الشاعر الفارسيّ في عُجمته عربيّاً وهو ليس بعربيّ:

الرَّمْل طار لقعر بئر في السَّما  
والنَّوم نَام، وميت يتحسَّن

والجبين في ضرع الدّجاجة رائب  
والصّخر في إيريق طين لينّ

والخيل أسرع.. أم رمال عواصف  
في الجوّ أعلى أم بعيري أسمنّ

والخمصر صحو والنبوة عقدة  
والشوك يعجب، والقمامة تفتن<sup>(2)</sup>

وهنا وقف حمار الشيخ في العقبة، واستنجد بثلاث مدارس غربية صميّة من «سوق الحدائث الرائج» ليفهم طلاسما ويفكك شفراتها المستغلقة، فأسعفه ناقد حدائيّ كدّ ذهنه واستعان على الشرح والتوضيح «بالبنويّة والتفكيكية والدائرية وحتىّ ما بعد الحدائث».. ثمّ أخيراً أسعفته السّرالية ببعض مفاتيحها فقال:

«هذا النصّ لا بدّ أن يُقرأ خارج مدلولات اللّغة ومعانيها الآنية القاصرة، لا بدّ من عمل مبضع الجراح، واستحضار السياق والأنساق، واستنباط كلّ الدلالات المنبثقة من اللاوعي وما يترتب عنه من بوح لامنطقي:



فشَبَّكتَ عَشْرًا ففوق رأسي معجبا  
وَصرخت: يا الله.. ما أحلاها

لو أنَّها سَيلَ خطير جارف  
لرميت هذا القلب في مجراها

وانطلق حمار الشيخ يعدو مذللًا كلَّ العقبات.. والنَّاقِد  
الحداثي كأنَّما كان مَيِّتا فُبِعَتْ، وراح يعدو خلف الشيخ  
ويقول:

لرميت هذا القلب في مجراها  
...لرميت هذا القلب في مجراها

[اه].

(1) ديوان «الساعر» للأمير الأستاذ محمَّد جربوعة، مطبعة «البدر  
الساطع للطباعة والنَّشر»، الطبعة الأولى 2014م.

(2) هذا التَّموذج الشعري «المستغلق» دليل على قدرة شاعرنا -الأمير-  
الكبيرة على الإبداع الفنِّي بأيِّ شكل يريده، وها هو يعطي نموذجًا لشعر  
الهديان الذي ينفقون منه صباح مساء، ولو شاء لسوَّد فيه مئات القصائد  
وعشرات الدَّواوين، ولو فعل لأعتبروه مجدد العصر، وفاتح الفتوح.

(3) أدونيس الجزائر هو كلُّ شاعر تعبَّد أصنام الحداثة واتَّخذها مسوحا  
يسوِّد بها بياض الورق، ويلوِّث أذهان النشء بقيح وصديد حضارة تائهة لا  
تعلم لها وجهة، فيها كلُّ يوم تجريب وتجريب..!

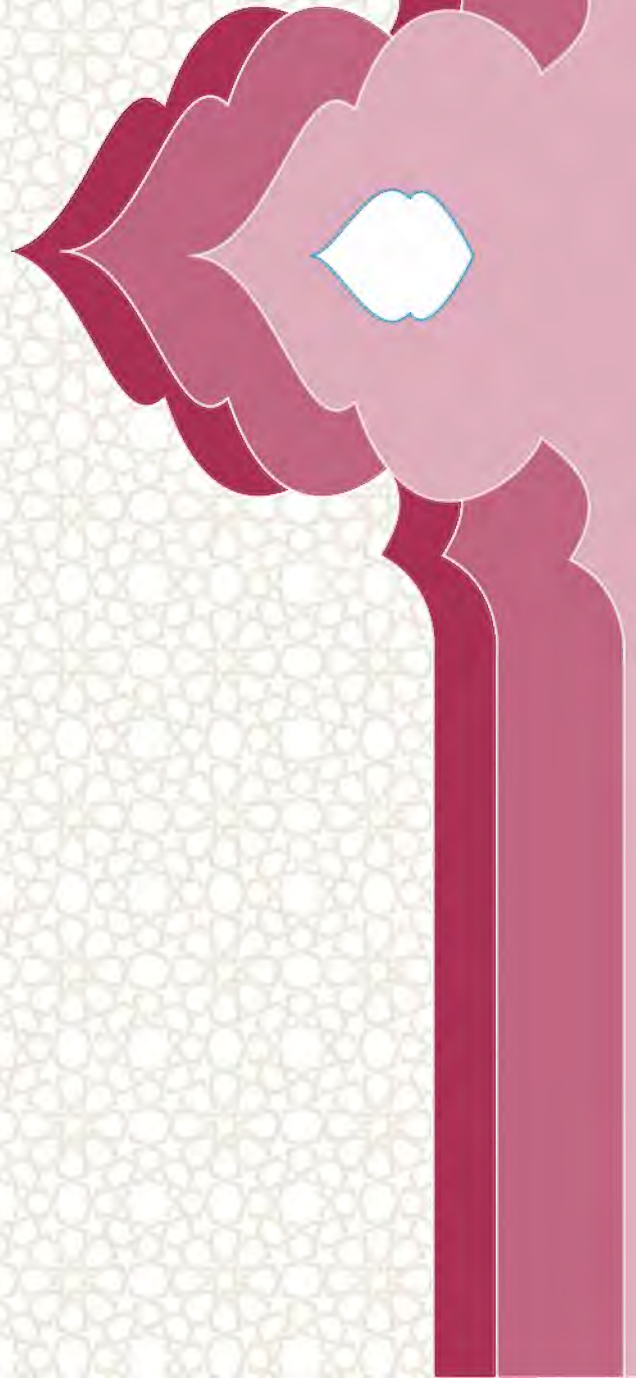
# كتاب كَلَفُ كَلَامٍ وَكَلَامٍ

تأليف: بوعزة أنيس





# القصائد





# القصائد



## يا شهقة الضاد..

بغتم / رضا بورابغة

فِي غَمْرَةِ الْبَلَوَى بِضُجِّ سُؤَالٍ  
مَا لِلْحُرُوفِ تَغْلُّهَا الْأَغْلَالُ؟

رَعْدُ النَّحِيبِ يَمْوُجُ فِي الْأَذَانِ يَا  
مَطَرُ الشُّجُونِ.. وَ صَوْتُكَ الْمُهْطَالُ

مُتَوَعِّلًا لِلْقَلْبِ يَفْتَحِمُ الْأَسَى  
صَدَرَ السُّؤَالِ الْمُرُّ وَ هُوَ يُقَالُ

هَلَّا أَصَاءَ الْبِرْقُ وَخَشَةَ نَبِيهِ  
فِي الذِّكْرِيَّاتِ لِكَيْ يَشْفَ الْحَالُ!

أَلَمْ يُعَشِّشْ فِي الضُّلُوعِ.. وَ حُرْقَةً  
تَرَوِي الْمَدَامِعَ.. وَ الْحَنِينُ عُضَالُ

يَا شَهْقَةَ الضَّادِ الْمَدِيدَةَ مَا الَّذِي  
يَكْفِيكَ كَيْ تَمَدَّدَ الْأَمَالُ؟

لَا تَمْكُثِي كَالضَّيْفِ فِي الذِّكْرَى وَ قَدْ  
نَفِدَ الطَّعَامُ وَ سَاءَتِ الْأَحْوَالُ

وَ لَتَخْلَعِي عَنْكَ الشُّكَايَةَ.. إِنَّهَا  
مِزْقٌ.. وَ لَيْسَ تَزِينُكَ الْأَسْمَالُ

عَيْنُ الْحَقِيقَةِ مِلْؤُهَا الْأَصْوَاءُ.. هَلْ  
تُجِدِي السَّتَائِرُ وَ السَّنَا سَلَالُ؟

لَا تَقْلَقِي.. شَمْسُ الْحَضَارَةِ لَوَحَتْ  
لَنْ يَجُوبَ اسْتِهْلَاكُهَا غَرْبَالُ!

مَازَلْتِ كَالشَّجَرِ الْأَصِيلِ مُطَاوِلًا  
كَبَرُ السَّمَاءِ.. وَ لَنْ تَشَحَّ غِلَالُ

هَبَا امْسَحِي عَنْكَ التَّحَسُّرَ وَ اذْرِفِي  
فَرَحًا طُمُوحًا.. فَالطُّمُوحُ زُلَالُ

يَا ضَادُ يَا خَجَلَ الْمَسَاءِ.. وَ يَا صَدَى  
لِلْكَوْنِ حِينَ يَصِيحُ فِيهِ جَهَالُ

كَمْ ذَا يَحْنُ إِلَيْكَ أَهْلُكَ مِثْلَمَا  
لِلذِّكْرِيَّاتِ الْآنَ حَنَّ سُوَالُ!

## بين أم وولد

بغتم / عادل حميد

رَقَدَ النَّجْمُ وَجَفَنِي مَارَقَدُ  
أَتَرَاهَا نَفَثَتْ لِي فِي الْعُقَدُ

كَيْفَ يُضْنِي فِي الثَّلَاثِينَ فَتَى  
مِنْ عَجُوزٍ بِنْتِ سَبْعِينَ السَّهْدُ

يَتَمَنَّى أَنْ يَرَى شَيْبَتَهَا  
وَيُورِ الْكَفَّ فِي شَعْرِ جَعْدُ

وَيَبُوسَ الْفَمَ وَالْحَدَّ عَلَى  
مَلَاغَ عَيْرٍ مُبَالٍ بِأَحَدُ



## الرحيل

بقلم / بوعزة أنيم

لملم شتاتك يا هيمن وامتشق  
عمق البراري والنسيان وانطلق

واترك بحار الهوى رهوا لمن غرقوا  
فلست أهوى بقاء بعد منعتي

أو أن أعانق طيف الحب في خلدي  
أو أن أصلي في محرابه الخلق

ارحل بعيداً بعيداً عن خنا وطي  
واطو القفار لكي تنسى بها ودقي

لا تحلمن أبداً فالحب مقبرة  
والشوق يدفن في تابوته رمقي

لا تيأسن.. فهنا الأشواق كاذبة  
تجري وزاهاب لهنف كل مرتزق

هنا العواطف مثل الثلج باردة  
خرساء باهتة ظلماً كالنفق

لا لوان لا نبض لا آثار سنبلة  
سوى صفيح رياح الصمت والقلق

ارحل فليست هنا الأيام ضاحكة  
وليس فيها سوى أوجاع محترق

فمي دم ومن الأيام علقمة  
ومن شفاهي يئن الشعر بالنزق

كم كنت أحسب أي ريشة بيد  
وأن حبر دواقي في شذى عبقري

وأن هندسة الأشكال أتقنها  
فرحت أرسم شكل الحب في ورقني

لكنها دمعات الحزن قد سبقت  
إلى تلاشي ظلال الحلم من حدقي

لَمْ يَزَلْ رَغَمَ التَّذَلِّي صَدْرُهَا  
مُضْطَرِ السَّعْدِ وَيَنْبُوعَ الرَّغْدِ

كَمْ خَلَّتْ بِي ثُلُومُ الزُّبْدِ فَمِي  
يَنْقَعُ الْجِسْمُ وَيَخْلُومُنْ زَكْدُ

خَبَّاتُ نَيْبِي عَنْ عُيُونِ حُسَيْدِ  
وَعُيُونِ الْخَلْقِ آلَاتُ الْحَسَدِ

كَمْ عَلَى تَغْتَابَةٍ لِي قَرَأْتُ  
عُودَةً مِنْ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»

رَقَصْتُ نَيْبِي أَقْوَاسَ الرَّجُلِ وَنَا  
عَلْتُ وَعَنَنْتُ مِنْ أَهْأَزِيحِ حُرْدِ

وَحَدَّهَا فِي الْكَوْنِ مَنْ تَبَسَّمَ لِي  
وَوَرَاءَ الْبَسَمِ حُزْنٌ وَكَبَدُ

وَحَدَّهَا تُنْجِدُنِي إِنْ بَرَّقَ الدِّ  
كْهَرُ لِي فِي يَوْمٍ نَحْسٍ أَوْ رَعْدُ

كَمْ أَقَالْتُ عَثُرَتِي كَمْ أَشْنَدْتُ  
نَيْبِي إِلَى سَاعِدِهَا نَعَمَ السَّنَدُ

كَمْ لَهَا مِنْ نَعَمٍ لَيْسَتْ تُعَدُّ  
دُ وَهَلْ تُحْصَى نُجُومٌ بِعَدْدِ!

إِنْ تَقُلْ فَالْقَوْلُ عِنْدِي قَوْلُهَا  
أَوْ تُشِرْ فَالرَّأْيُ بِالشُّورَى انْعَقْدُ

لَبِوَةٌ أَمْسَتْ عَلَى أَشْبَالِهَا  
مُشْبِلًا تِلْكَ وَرَبِّي لَأَسَدُ

قَمِينٌ أَنْ تُشْرِقَ الشَّمْسُ لَهَا  
وَحَدَّهَا صَاحِبُ كَتَّةٍ طُورَ الْأَبْدِ

قَمِينٌ أَنْ تُجْمَعَ الْأَنْجَامُ بَيْنَ  
مَنْ يَدِيهَا مِثْلُ أَمْسِ وَالْأَبْدِ

أَطْمَعُ الشَّيْخَةَ فِيمَا أَمَرْتُ  
كَمْ حَدِيثٍ صَحَّ فِيهَا قَدْ وَرَدُ

كُلُّ حُبٍّ بَعْدَ حِينٍ فَاتِرٌ  
عَلَّيْ حُبٌّ بَيْنَ أُمٍّ وَوَلَدِ



فهل يجي زمن من غير ذاكرة  
فأشهى الشوق من أرحام معتنقي

وهل أعود كما قد كنت نرجسة  
لماعة في جبين الروع كالعرق

وهل تعود طيوري بعد هجرتها  
فألتقي بفراشي بعد مفترق

أهوى السقوط على استفهام أسئلة  
تظل في شفتي تفتات من حنقي

فمي دم ومن الأيـام علقمة  
ومن شفاهي يئن الشعر بالنزق

إلى هنا العبرات الخمر توقيفني  
والشعر يهجرني في مفرق الطرق

والحلم ماعاد حلماً غير أرصفة  
تحكي سدى المايهذي به أرقى

هي السباحة في أوجاع ذاكرة  
لتعلن السمكات الزرق عن غرقى

فمي دم ومن الآهات عاصفة  
تثور لما يئن الشوق في عنقي

وليس يلجمها شيء و يكشفها  
إلا الذي خلق الإنسان من علق

## عطرا

بظم / طارق خلف الله

لا تبحتني عن أي عطر فاخر  
لا عطر أحلى من قصيدة شاعر

لا تلبسي في الجيد وهم قلادة  
تكفيك أصدا في وسحر جواهرى

لا تسكني مدن الغياب وحاولي  
أن تحملي همى وهم دفاترى

أن تفتحي كل الشبابيك التي  
أغلقتها... أن تختلي بخواطرى

أن تسمعي دقات قلبي مرة  
أن ترتقي في حضنه وتجاهرى

أن تصبحي بين النساء أميرة  
أن تفتحي مدني بكل تفاخر

وإذا سألتك عن جمالك غير  
قولي لمن : أنا حبيبة شاعر

## قصيدة لعينها

بظم / إبراهيم بشوات

عواصفي اختضيتها فاعواطف لا  
تحيا إذا لم يئن في الروح إعصار

إني سأكتب لو طأعت سيدي  
شيئا لعينيك منه تولد النار

حزني زهور وورد ملؤه قرح  
نقاطه من مداد البوح أقمار

أنا المعاني فغوصي تحت أبحرها  
فربما أبقيت الخفي إبحار

وهذه صفحتي كنون يغازلني  
لتستفيق فراسات وأزهار

ألقي بذر قصيدي غير منظر  
غيتا فتبعث من عينيك أنهار

في طرفة العين حر الشوق حاصري  
وأزسلتني إلى دنياك أقدار

لكنني رجل لا صبر يملؤه  
إذا تماديت في التعذيب أنهار

أخطو كأولى مسافات الوليد حبا  
وطال فوق سكون الأرض مشوار

أريد أن أفصح الإنعام عن لغتي  
وأن تفيق من الضوضاء أسرار

وأن تلامس أقلامى ضفاف دمي  
حتى تبوح بلون الغيب أخبار



فَإِنْ رَضِيتَ حَبِطْتُ اللَّهُ مُفْتَخِرًا  
وَإِنْ غَضِبْتَ فَرَبُّ النَّاسِ غَفَّارٌ

## واحة الدفاء

عظم / أحمد العماري

ذهبت بعقلي خمرة الأخـداق  
ورمت فؤادي رمية الفؤاق

من أين جاءت لست أفهم ما جرى  
كيف اشتفقت نائم الأشـواق

مالي أكبل مهجتي في ورطة  
من ليل ذات السبب الرقاق

مضربة، عربية، قرشية  
قدسية، شامية الأعراق

دوري غابات الهوى غنى لها  
في وحتي وشدا على أوراقـي

ورمى هموم الدهر عني جانباً  
لما انجنى فوقـي ورام عنـاقي

ومحا التماهي صورتي في وجهها  
كرخية ختمت لأجل مذاقي

في دنـها يذئـوقنـائي طالبا  
لثم الخلود برعشة المشتاق

وأعوذ في صخوي أفش عن دمي  
فيها كطفل سبي الأخلاق

تفسو علي وفي الأخير تضمني  
كيلا يضيع الطفل في أعماقي

وتقول لي قم للصلاة فربما  
طلع الصباح وأنت في أحداقي

واذكـر حبيبي أحمد المختار في  
ما يعتريك إذا دخلت نطاقـي

فأنا أداوي بالصلاة عليه ما  
ألقاه إن دارت كؤوس الساقـي

ذرفت عيوني ما تراه مناسبا  
لجوابها، فالدع من أخلاقي

لاسيما إن هاجت الأشـواق بي  
نحو الحبيب وصيقت أطواقي

مسحت دموعي بالدموع فأغرقت  
سؤني، وإن السر في الإغراق

قد جفت خلقي حينها والماء في  
يدها، ككنز في يد الإملاق

لم أستطع أن أستقيم بقامتي  
لم تستطع حملي هنالك ساقـي

نادى المُنادي للصلاة، وليتني  
لم أضح من سُكري على الإطلاق

قلت.. الصلاة على الحبيب وآله  
طبي إذا ما الجرح شد وثاقي

.....  
.....

فالحب ليس رسالة ليلية  
نامت بهاتف مغرم مشتاق

الحب مس إن دعيت لرؤية  
منه، فقل مالي وما للراقي

أنأ لا أزال منعماً فإذا انتهى  
مسي فروحي أدنت بفراقـي

يا خير مقصود وخير مؤمل  
ها قد حططت الرخل دون رفاقي

هم عائدون لدارهم وأنا هنا  
داري وأهلي، فاحمني بعناقـي





# الكتاب

ماذا يعني لك  
الكتاب؟؟



المفكر / مالك بن نبي

هو الخطاب الموجه إلى الأصدقاء  
المجهولين على وجه الأرض...

بوابة عمق؛ ومفتاح حقيقة!  
منير سعدي

الرحم التي تولد منها الحضارة.  
معمّر عيساني

صديق رائع؛ لا تغيره الظروف.  
سمير

المسكن الهادي لوجع الضجيج.  
مصطفى زياتين

بحر تغرف منه على قدر عقلك.  
مصعب بلهادف

نافذة نحو الثقافات الأخرى.  
نصيرة بورقعة

فاكهة الدنيا وزينتها، وخير ما نزل من السماء،  
وما أبدعه أهل الأرض.  
عادل حميد



# القصة والرواية





# القصّة والرواية



## ابن الإنسانية

مصطفى بوالطين

قصة (فصل 2/2)

وحريصٌ على استمرار صداقتهما حتى يستطيع الشعبُ العيش في ألفة وأخوة.

لا يَبْدُو على الطبيب التعجبُ لما أقوله ولا الإعجابُ بالمكانة المرموقة التي حظيت بها والمهمة النبيلة التي وُكِّلت إلي، تركيزي على سرية المهمة جعله متحفظاً في الأسئلة المطروحة، أَسْتَعْجِلُهُ لأن طُوبول الحرب قد قرعت ويجب علي أن أَمْنَعُ وَقُوعَهَا، أُحَاوِلُ الخروج من عنده لكنه يَسْتَحِلِفُنِي أن أواصل إخباره بتفاصيل المهمة وخُروجنا نحن الثلاثة من الكوخ للوقوف على الربوة كُلِّ على جواده بعدما التحق بنا صلاح الدين الأيوبي، نُظِلُّ على المعركة المحتدمة أسفل الربوة.. أَهْمٌ بالزول، لكن صلاح الدين يَمْنَعُنِي.. أَصِيحُ في وجهه بأن المسلمين يُقْتَلُونَ، فيردّ -وكأن الأمر لا يعنيه- بأن القاتلين أيضا مُسلمون، أما تدخّلنا فلن يزيد شيئا سوى منسوب الدماء المسكوبة، ينطق ماسينيسا وعقبة بصوتٍ واحدٍ أن هذا ما خَشِياه منذ زمن، خشيا تحوّل تنوع مجتمعنا إلى نقمة يتقاتل بها الإخوة فيما بينهم مُغمضين الأعين عن العدو الحقيقي، أسألهم عن هذا العدو الحقيقي الذي يتحدث عنه الجميع فيَدْفَعُنِي صلاح الدين نحو المنحدر صارخاً أن أُبَحِّثَ عنه في خِصَمِ المعركة.. أن أفرّق طعناته عن الطعنات ودماءه عن الدماء، لا أن أبقى متفرجاً مكتوف الأيدي. في نهاية المنحدر أقِف مغبر الثياب والتراب يملأ في وسط معركةٍ حامية الوطيس.. تتطاير الرؤوس أمامي، وتلطّخ الدماء وجهي، يَتَعَالَى صوت تشي غيفارا قادماً من كل مكان مبهتجاً بثورة الضعفاء، يتلقى الصفعة تلو الأخرى على وجهه مفتخراً بمشاطرته أَلَمِ المظلوم، يقطع حديثه صوتُ المهاتما غاندي الذي كان جالساً وسط المعركة إلى جانب جان جاك روسو، جلستُ إلى جانبيهما غير

على قارعة الطريق استوقفنا الكاهنة «ديهيا»، حيث تنتظرنا على جواد أسود فاحم. لقد كانت تعلم مسبقاً أننا لن نسلُك طريقاً غيره. تحوّم حولنا، فأَتَخَفُ استحياءً منها بعد أن أضَعْتُ الأمانة التي خَبَأْتُها عندي، تُقَرِّبُ رأسي لتُسِنِدَهُ على صدرها وترت عليه راضية عن تمسّكي بأمازيغيّتي رغم الإضافات التي تصنع انتمائي، تُقَبِّلُ رأسي قبلّة دافئة وهي تهمس بأننا جميعاً أبناءها، وأن اختلافنا هو الذي يصنع إعجابها بكل فردٍ منا وحبّها له.

يَذَكِّرُنِي «الأمير» بطول الطريق الذي ينتظرنا، فأُفَارِقُ «ديهيا» بصعوبة بعد عناقٍ حار. السماء بدأت تتلبّد، لتَبْلِلَ القطرات الأولى جَبِينِي، فأَمْسَحُهَا بيدي فإذا هي بلونِ الدم ورائحته، يأتيني صوتُ الأمير مختلّفاً هذه المرة كأنه ممزوّجٌ بصوت ثان، يشرح لي كيف أنّ هذه الدماء لا مفرّ منها في طريق نشر المعتقدات.. صوته نقيٌّ هذه المرة لكنه ليس كصوت الأمير، يلتفت فإذا بي خلف «عقبة بن نافع» وقد شدّ زمام الجواد عند وصولنا إلى باب الكوخ المنشود، يستقبلنا ماسينيسا بحرارة، يَعْقِدُ لساني العناق المليء بالمشاعر بين الرجلين، يُدْخِلُنَا ماسينيسا وهو يُثَرِّثُ عن الصداقة القديمة التي جَمَعَتْهُ بعقبة فأقاطعه بأنهما لم يعيشا في نفس الزمن، فيضحك من سذاجتي ويُخَيِّرُنِي أن الصداقة لا تُعَرَّفُ بالأزمان، وأنه مُمتن له تنويره الأمة



أبهين بما يجري حولنا، ينهرُ المهاتما المتقائلين ويذكّرهم بأن التسامح صفة الأقوياء، قبل أن يلتفت إليّ ويأمرني أن أسأل إذا كنت أبحث عن أجوبة، أتساءل: لماذا يجلسون دون حراك ولا يُشاركون الثوار ثورتهم؟ يتعالى ضحك جان جاك روسو حتى يسقط على ظهره وهو يحاول الإجابة على سُؤالي بكلماتٍ متقطعة أن هؤلاء يجهلون معنى هذه الحرية التي يبحثون عنها ويتمردون من أجلها دون تحمّل المسؤولية ودفع الثمن مسبقاً بنزع أغلال الاستعباد عن أعناقهم.. أجول بنظري فأرى المتقائلين قد غلّت أعناقهم بسلاسل غليظة تربط كلّ واحدٍ منهم بالآخر، يُقاطعه المهاتما وقد حزّت في نفسه عشوائية السهام المصوّبة نحو الفزاعات المنتشرة في كل مكان، يقول إن الطاغية الحقيقي في داخل كلّ واحدٍ منا في أنانيّته وجشعه، وما قد يكون ثورةً بالنسبة لأحدٍ يكون عبوديةً بالنسبة لآخر، أتساءل كيف لي أن أُميّز الحقيقة وسط كل هذا الدخان المُعتم والموت العبي، يردّ جان جاك روسو بصرامةٍ أنني أختيرتُ لأنني أعرفُ بالبحث في أدغال قلبي وجعلته نفس القلب الذي يدقّ في صدور الإنسانية كافة..

عُنق ردائي تجرّني  
الزغاريد

القبضة عنيّة على  
وسط



والصّباح نحونا متقدّة تكادُ تبلّغ الأفق، أرمى داخلها ككومة قش فإذا سيدنا إبراهيم يُقاسمني النار التي لا تبلّغنا، بل تُلْفَحُنَا بردًا وسلامًا، أتأمل وجهه المجعد وشيب شعره، يفهم ما يدور في رأسي فيُدكّرني بأن الفرج يأتي من الله ولو في أرذل العمر، كل ما علينا فعله هو التوكّل عليه والخضوع لأمره، يبلّغني صوتُ غيفارا متسللاً بين الضوضاء أن أثبت إنك تحترق لتُنير طريق الآخرين، يُدنيني سيدنا إبراهيم إليه يقول إن الإنسان حاضره فقط لا المستقبل الذي في حكم الله ولا الماضي المليء بالأخطاء، أذكر أن أباه كان يُسيء مُعاملته هو الآخر فيُجيبني كأنه يقرأ أفكاره، بأنّه سامح أباه كما تسامح مع ماضيه..

يأتيني صوت الطبيب يُخرجني من سلسلة أساطيري يسألني إذا كنت لا أزال مُصرّاً على فكرة عودة أبي بعد الموت فأفضّل الصمت، أعرف أنه يُشكّك في كلّ ما أقوله، أحذق إليه بنظراتٍ ثاقبة لا يظهر تأثيرها عليه، وجهه الواجم يزيد ثقل الصمت على صدري، أقاوم رغبة الكلام لكنّ لساني يخونني فأواصل قصة ما تنتظره الإنسانية ممّي أنا المخلص المنتظر كأنه لم يطرح أي سؤال، أواصل قصّة يدِ فريدريك نيتشه الممدودة إليّ خلال اللهب يسحبني من بينه ويركّض بي خشية أن يبلّغني الموت المتربص بنا في كل زاوية، يوصيني لاهثاً أن أركن إلى الأديان وأنبيائها لا إلى رجال الدين، أن أبحث عن الحقيقة في عقلي لا أن ألقاها على منابر المساجد وجدران الكنائس، يُفلت يدي عندما يقفُ بوذا في طريقنا ويتلاشى كأنه لم يكن، يُهَوّن بوذا من روعي فالبحث عن الحقيقة هي مهمتنا في الوجود ولنا العمر كله للعثور عليها، لكنني لن أجدها طالما لم أترفع عن وديان القتال حيث توافه البشر وصعاليكهم، لم يُطل بوذا الكلام قال إنه يُفضّل الصمت وإنني أملك داخلي كل ما أبحث عنه وما أحتاجه لإتمام مهمتي، أسأله وقد ابتعد عني عمّا عليّ فعله الآن، فيأمرني أن أتوقّف عن طرح الأسئلة لأبدًا في العمل، أقفُ على الهضبة مُتأملًا الفراغ المُمتدّ على السهل اللامتناهي تحتي، صمت رهيب يملأ الأفق، على الهضبة المقابلة يبدو طيفُ رجلٍ جالسٍ أركض نحوه لكنه يبدو في كلّ مرة أبعد، أسارع الخطى فأتبين وجه سقراط، أكاد أصل إليه فيُشير بيده أن أتوقّف مكاني، وبسبّابته إلى رأسه يدقّها عليه أن أستعمل عقلي قبل الإقدام على أي عمل، ثم يفتح ذراعيه يبسطهما إلى الفراغ أن أتأمل في



الطبيعة، ويُمسِك قبضته يَربّت بها على صدره أن انظر بعين قلبك لِيَفْتَح سبَابته وَيُشِيرَ بها إلى السماء، يُناديني توماس إديسون الذي كان جالسًا على حافة الهضبة هو الآخر إلى جانب كل من إسحاق نيوتن وليوناردو دافنشي، يُواسيني أن لا أبتئس لعدم حديثه إليّ فتلاّثتهم هنا منذ قرون ينتظرون كلمة منه، لكنهم لم يتوقفوا عن البحث عن المعرفة، بقّوا مُتَعَطِّشِينَ لها ومُسْتَمْتِعِينَ بالطريق إليها، قاطعه دافنشي أنه لولا اتّباع الحدس ما وصل أحدٌ منهم إلى هذا المكان وما جَلَسُوا يُعْمِلُونَ خيالهم ويُشْفَوْنَ فضولهم عن الطبيعة..

بدأ المنظرُ في الأسفل يتغيّر.. أَخَذْتُ جِدَارِيَّةً في التكوّن على بعد أمتار من الحافة، أَعْرِفُ هذه اللوحة قَانًا رَاسِمُهَا، أَخَذَ دافنشي يمدحُ لوحة «أبناء السماء» التي رسمتها ودورها في إرساء التسامح بين الأديان، أتساءل كيف للوحة أن تُقْضِي على كل هذا القتل باسم السماء وتنزع العنصرية عن قلوب البشرية وتُفَقِّمَهُمْ أن الاختلاف رحمة، فيحدّرني من إحباط النَّفْسِ والتقليل من دورنا نحو الإنسانية إذا كنتُ مؤمنًا بتحقيق مهمتي، يجب أن أتعلّى بالثقة العمياء التي تعلّى بها الأنبياء حتى أوصلوا رسالة السماء إلى البشر. أنهضُ من مكاني قبل أن أتذكّر أن نيوتن لم يتكلّم، أطلبُ منه أن يُمدّني بشيء قبل أن أغادر، فيُجيب في الحين كأنّ إجابته كانت تنتظر على لسانه أن كل فعلٍ أقومُ به سيكون له ردة فعل، فلا أبتئس لغياب النتائج اللحظية، ليُضَيِّف وقد ابتعدتُ أن لا أنسى أن للضوء الأبيض سبعة ألوانٍ في الحقيقة..

أريد أن أكملَ طريقي تاركًا الثلاثة خلفي فأصطدمُ برجلٍ أرفعُ رأسي فأجد سيّدنا المسيح بوجهه المضيء وشعره الطويل يَضُمُّني إليه بابتسامة أبوية.. أشكو إليه تعبي وقلة حيلتي وضياعي عن الطريق فيمسحُ على رأسي ويدكرني أنه وُلِدَ بلا أب، لكن البشرية كلّها اتبعته ويُشجّعني بأنه يرى نفسه هو الآخر قليل الحكمة والمعرفة بحلّ مشاكل البشرية، أرشدني للبحث في كوخٍ بعيد عن النّبي محمد، على باب الكوخ خَرَجَ عمر بن الخطاب يُغَالِبُ الدموعَ لوفاء الرسول، لكنّه متفائلٌ بأننا سنحلمي سنّته وننشرها في العالم، أنهارُ أمامه كخيمة مهالكة، أبكي بحرقة على ضياع أُملي في لقاء الحبيب والبكاء على قدميه الشريفتين وإبلاغه كيف أرقبنا هذا الزمن وكيف أضعنا الطريق

وأضعنا أنفسنا، يَحْمِلُني عمر وهو يردّد أن لا وقت للبكاء على الأطلال، ويأمرني أن أذهب إلى سيدنا نوح الذي أوشك على الانتهاء من صنْع سفينته، أسأله عما يجب أن أفعل للنجاة بالبشرية فيجيبني دون أن يرفع رأسه بأن الطوفان قادم ولن ينتظر إيجادك للطريقة المثلى، المهم أن تُقنِعَهُم بالركوب وأن لا تأبى بأراء المستهزئين. صوتُ خرير المياه يصمّ الأذان قادمًا نحونا بكل سرعة، نركب السفينة هربًا من الأمواج الضخمة تقدفنا في كل اتجاه، إلى أن رسّت بنا على أبواب الجنة وأدم وحواء خارجان منها يجزان أذيال الخطيئة.. أحاول أن ألقى نظرة على الداخل لكن ساقّي لا يحملاني، أفقد الإحساس بهما ينسابان على الأرض، أنظر إليهما فإذا بهما صارًا من طين، أرفعُ ذراعي يتقاطران طينًا أندمجُ مع الأرض والأفق يملؤه صوت يؤذن {إنما المؤمنون إخوة}؛ {وخلقناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا}.. أحسّ بالبلل يغطّي جسدي بأكمله والغضب يعمر قلبي لفشلي في إخراج البشرية من النفق المظلم، أرفعُ رأسي فإذا أبي قد دخلَ مكتب الطبيب وقبضَ على رقبة أُمي يُريد قتلها مرة أخرى، تصرخُ في وجهه لكنه لا يتوقّف عن الضغط، أحاول نجدةً لكنني عالقٌ في الوحل يُخرجنِي منه وخز الإبرة في رقبتي، أعودُ إلى وَعبي فأجدني قابضًا رقبة أُمي وهي تتوسّل إليّ بأكية ألا أقتلها كما قتلتُ أبي.. ترتخي أصابعي ثم يرتخي كل جزء من جسدي، ارتطم بالأرض وأمامي الطبيب حاملًا الحقنة.. جسدي لا وزن له، أحسّني خفيفًا نقيًا كأنني أطيّر إلى السماء.. [اه].

## في الأعماق

عبد اللطيف ولد عبد

القصور

كان يستعد للغوص في أعماق هذا البحر الذي تلاطم موجه ودكن لونه. ألقى نظرة حاملة إلى السماء فألفاها زرقاء يتفرق على أديمها بقع من السحب المنتشرة كأنها نفثات سيجار. صباح خريفي مشمس ككل أيام هذا الأسبوع تقريبا، شاهد أمس نشرة الأحوال الجوية رفقة زوجته وولده صلاح الدين الذي حاول ارتقاء ظهره لاعتلاء منكبهِ، وابنته خديجة في حضن أمها تمسك بقارورة الحليب، تمصها تارة وترمق



- نبيل.. هل أنت بكامل قوتك؟ فأوماً نبيل برأسه إيجاباً دون أن يتبس. ولما التمس الرجل منه موافقة، عاد يقول بصوت عطوف يحمل في طياته جسا لنبض نبيل:

- هل أنت متأكد من أنك ستبلغ مئة متر؟ نبيل، إن لم تقدر فستون متراً ستفي بالغرض.

كان يعلم كلاهما أنه لا مناص من المئة متر، فقد جرب من قبل الغوص ستين متراً وخرج صفر اليدين في أغلب الحالات. الحاجة تيرر الوسيلة، وحاجته تقوده إلى الدرك الأسفل. وأذعن لطمع الرجل ووضع القناع على وجهه مكتفياً بهز كتفيه استهانة.. ستون، مئة، كلها سيان عنده، حتى 150 متراً ستهون في سبيل الرزق. وثبت قارورة الأكسجين على ظهره. أمسك بقضيب معدني معقوف عند نهايته وتبدل منه شبكة.. ألقى نظرة أخيرة على الدنيا وسحب نفساً طويلاً ثم غطس في الماء.

بدأ ظله يختفي وسط ظلمة البحر كلما غاص أكثر وخلف وراءه فقاعات بدأت تقل مع مرور الوقت.. كان سطح الماء أملس بلون فوسفوري مشع.. هناك تحت السطح شخص وحيد يعاند الحظ والبحر والموت، وكأن تعاسة الأرض لم تكن كافية.. وواصل الغوص..

ثلاثون متراً..

شق طريقه بثبات نحو القاع، سبح بانسيابية ومرونة خليقة بسباح مخضرم. على هذا العمق شاهد أسراب السردين الفضية تتحرك بإيقاع منظم وكأنها لحن موسيقي، ولمح عن بعد سمك الزمير وسرباً آخر من سمك «الركوس»، تتحرك زعانفها في حركات رشيقة، تتبع أثر السردين لإقامة مأدبة جماعية.. وواصل الغوص..

خمسون متراً..

لا تزال المئة متر بعيدة ولكنه قطع نصف المسافة حتى الآن.. حرك رجله بقوة فدفعته الزعانف عدة أمتار إلى الأمام، أحسن بغتة بوخز في فخذه اليسرى.. تجاهل الألم الذي تسبب به نقص الكالسيوم في عضلاته.. وواصل الغوص..

جلس على حافة القارب المهتز بفعل المد والجزر، حشر جسمه داخل بذلة مطاطية ولبس الزعانف في رجله. يوم آخر من الغطس في أعماق هذا اليم، ولكن هذه المرة ستختلف ولن تكون كالأيام التي رجع فيها لا يحمل إلا النزر القليل من الغنيمة، لم يخبر زوجته عما عزم على فعله، وودع ولديه خلصة كي لا يثير ربهما، احتضنهما بكامل قوته وحنانه حتى كاد يذرف الدموع لما تعلق به صلاح الدين وأمسك بحافة سرواله وأبى أن يتركه. خرج من بيته يجر خطواته نحو الشاطئ، مسوقاً بقوة اليأس وغريزة البقاء أين ينتظره القدر هناك بوجه متجهم.. وعده الرجل صاحب القارب مقاسمة الريح بالنصف إن هو تمكن من بغيته هذا اليوم.. قبل العرض دون تردد، فلا خيار أمامه.. لديه عائلة تنتظر قوتها منذ أسبوع. وبعد تلك الزيارة غير المتوقعة للطبيب، وبعد الفحص المتواصل بالتحاليل والأشعة، تبين أن زوجته تعاني من سرطان الثدي وقد استفحل وضعه.. إن كانت الحياة بكل هذه القسوة، فلماذا لا نجابهها بقسوة أيضاً ونغوص في أغوارها حتى النهاية؟ إن كنا ستموت لماذا لا تسلك طريقاً أشرف للموت.. هكذا قرر الإقدام على خطوته التي لا محيص عنها..



نظر إلى الأفق البعيد أين يلتقي البحر بالسما دون رابط بينهما.. التفت إلى يمينه عند انحناء الزورق ومد يده ليلتقط قارورة الأكسجين، سحبها ووضعها بين رجله، ثم رفع وجهه نحو الرجل الجالس على الحافة المقابلة، الذي



خمسـة وثمانون مترا..

شعر بالضغط يتزايد كلما أوغل في البحر نحو القاع، وثقلت نبضات قلبه تدريجيا، ولكن الحياة لا تزال سارية رغم هذا المكان الموحش، وبينما هو يغوص إذ مر أمامه قنديل برأسه المقرب الشفاف وأطرافه الطويلة الرفيعة.. توقف أمامه برهة وهو يشاهده، تحرك شكله الهلامي عكس لوامسه الرفيعة في حركة كالمضخة.. وواصل الغوص..

ثلاثة وتسعون مترا..

ظهرت الشعاب المرجانية أخيرا، ولاحظ عن كثب لونا أحمر وخطوطا متموجة كشعيرات شقراء تسبح على عمق مئة متر، اقترب من القاع ببطء وتجاهل الألم الصارخ في فخذه اليسرى وأحس بثقل في صدره. كان وهو يقترب من القاع يرى أجمل منظر في حياته.. أجمة من الشعاب المرجانية الملكية الحمراء، تتألأ خلالها قصوص من اللائي الناصعة والفاقعة اللون، وهناك رأى سمكة «الحنكليس» تجر جسمها الطويل وكأنها تزحف فوق كنوز علي بابا في قصص ألف ليلة وليلة قبل أن تدركها يداها.. اشتعل الألم في فخذه وتشنجت قدمه اليسرى، ولكنه تشبث بأهداب الأمل وقاد القضيب المعدني بين الشعاب يلتقط المرجان المتساقط على القاع.. مضى الوقت سريعا واستنفذ كمية لا بأس بها من الأكسجين.. نال منه التعب وتقلصت عضلات فخذه وتشنجت بقوة.. لم يستطع هذه المرة مقاومته فأفلت القضيب من يديه وسقط المرجان متناثرا بين الشعاب.. تحرك بعنف ليمسك برجله وتلوّى في مكانه صارخا بصوت مكتوم، تناثرت من فمه فقاعات كثيرة وسقط القناع من وجهه.. تخبط في مكانه بين الألم الذي عصّر جسمه وبين الجهد الضائع لالتقاط القناع.. لحظات فقط وإذا به يتسمر فجأة ويمسك صدره بيده.. جحظت عيناه وكأنه يحدق إلى أمر بالغ الدهشة، مد يده كمن يتحسس ملمس وجه جميل، وتحركت شفثاه ببطء في الماء وكأنه يود قول كلمة أخيرة للوجه غير المرئي.. كان نطقه يتردد في الأعماق، كان نداء سرمديا تجاوبت معه الحيتان والبحار والمحيطات.. صلاح الدين، خديجة، زوجتي..

بعد ثلاثة أيام..

ذاع في القرية أن أحد الصيادين الهواة وجد جثة على

الشاطئ، فخفّ عدد كبير من السكان إلى خليج بحري على بعد شاطئين من القرية. وكان بينهم امرأة في الخامسة والعشرين غادر زوجها البيت قبل ثلاثة أيام ولم يعد.. همّ رجال الحماية المدنية بإخراج الغريق من عرض البحر إلى الشاطئ لنقله إلى سيارة الإسعاف، وتبادل الرجال بعض الكلمات قفز لها قلب المرأة، وشقت طريقها وسط الجموع واشترأت برأسها فلمحت رجال الإسعاف وهم يقتربون وقد نال منهم الجهد.. يحملون جثة بدأت تتضح ملامحها مع اقترابهم..

وانطلقت في الهواء صرخة ملأت ما بين السماء والأرض: «تبيل...! [اه].»

## قال وقالت...

أقصوصة

أم تماضر

كان باقعة زقانه مع حُسن السّمتِ ووقاره، بديع اللّغة جزل الألفاظ، تخالّه -إذ يُحدّثك- قد أُوتِي مفاتيح القلوب والألسنة وأزمتها، حصيفا؛ في سداد رأيه كأنّه ابن الدّنيا التي ولدته ونفّثت في روجه قبسة من أثر غوايلها وشُروها فإذا هو يدرا عنه من عاديّات الأيّام واللّيالي ما شاء الله له ممّا يدكّ الجبال الرّاسيات دكا، إذ التّوفيق الإلهي لا يبرحه، والتّوفيق في الاصطلاح الدّنيوي هو الأصل في النّجاة من كلّ داهية من دواهي الطّغام!

وكانت هي فتاة غيرة قد استلب قلبها حُبّ الدّنيا حتّى أوداها صريعة شهواتها لا تملك نفسها، ولا تُباشِر الواحدة منها حتّى تراها لا تلوي على شيء إلّا أن تقضي منها الغاية، وكان حريّا بها وهي في سبّتها تلك أن تذهب في مذاهب الحياة الهويّية، الهويّية، لا تُقدّم قدما ولا تُؤخّر أخرى إلّا عن بينة من أمر عقلها، فتزن الأمر بنظرة العاقل لا بنظرة المخبول مسلّوب العقل، فإن هي أوْشكت أن تزلّ أو فقدت رسن ناصيتها إذ هي ما زالت في تجربة الحياة غريرة كالصبيّ يتلکأ الكلمة لا ينبس بها إلّا بعد لأي، أحالت مَقاليد أمرها وما قصّر دونه فكرها لمن هو أعقل منها فيكيفها مؤونة نفسها.

ولكن كفى بالمرء شؤمًا وبؤسا أن يخرج من سعة الشّباب إلى ضيق الكهولة مُترعا بالهنّات والخيبات، غارقا في جحى الأثام والزّرع، والشّباب في العُمُر كالرّوح في الجِسم،



دخلت مقهىً بجنب مقرّ العمل، ذلك المقهى الذي يُشعرك أنك عبرت بوابة الزمن إلى الماضي إذا ولجته، فكل شيء فيه عتيق: الطاولات، المصابيح، خَزَفُ الجدران، حتى النادل ذاته؛ لولا تلك الثلاثة التي عليها غلاف «كوكا كولا» الأحمر، الذي يُشعرك ببعض الحداثة ويُرسِلُ في عَيْنَيْكَ ألواناً زاهية، على حساب الألوان الباهتة التي تبعث على الحزن والكآبة في كل ركنٍ منه.. فترجعك إلى زمان الناس هذا.

وأنت داخل، لا تلبث حتى يَخْرُك صُراخٌ عَمِي «مُحمَّد» وهو يلوّحُ بِشِمَالِهِ: «قهوة (براس) أو حاجة أخرى؟» في حين أن يمينه قد خَلَفها على مِقْبَضِ العَصَّارة، تَسْعَى في اتجاه عمودي، من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق، مُلَبِّياً طَلَبَاتِ الزَّائِنِ المَدْمِنِينَ على احتساء القهوة وشُرْبِ الدَّخَانِ.

اقتربتُ منه، وقُلْتُ مُبْتَسِماً: «عَمِّي مُحمَّد! أريدُ قهوةً مُرَكَّزة، إذا شربها الثملُ انتَبَه، وإذا اشتَمَّها النَّائمُ أفاق، وإذا مَسَّها حجرٌ مَسَتْهُ سُرَّاء».

فردَّ -كعادته- مُجاملاً: «حاضرياً (سي فارمها)، طَلَبَاتِكَ أوامر».

عمدتُ إلى طاولةٍ بها مكانٌ شَاغِرٌ، حيثُ يجلس شخصٌ يبدو من مَظهرِهِ أَنَّهُ مُختلَطُ العقل، فَقُلْتُ في نَفْسِي: لو شَرَعْتُ بالتهوُّسِ في وجهِهِ، لَسَوْفَ يُحَدِّثُ ذَلِكَ شُرحاً في نَفْسِيَّتِهِ، فعزمتُ على أن أقاسمه الطاولة، وليكن ما يكون!

رأيتُ فيما رأيتُ، رجلاً عَلَيْهِ أحلاسٌ، تُشعرك بالبرد بمُجرَّد أن تقَعَ عَيْنُكَ عليها.. تعلو رأسه قُبعةً رياضيةً مدهونةً بكلِّ أصناف القمامة.. أخبرني هندامه أَنَّهُ نَزِلُ الأرصفة والطرقَات، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يتوسد الأرض وفي أحسن الحالات «كرتونة» عتيقة، قد تشبَّت من بقع البول التي يلفظها سرواله!

وَضَع بين يديه كوبُ قهوةٍ، تتوسَّطُهُ مِلْعَقَةٌ للسُّكَّر، يُديرها باستمرارٍ لِيَمْنَعَ أيادي العابثين من أن تنالها (!).. لو

فإنَّ هي -الرُّوح- اسْتَلَّتْ ومُحِجَّتْ واستحالت إلى معانيها الماديَّة الصَّرفة لم يبق إلاَّ الجسد، والجسدُ جَماعُ المعاني الحيوانيَّة في الإنسان، كذلك هو الشَّباب فإن هو انفضَّ فكأنَّ ربيعَ العُمَر شمسٌ تُوشِكُ أن تغيب.

هُوَ من هُوَ من سادة الأدب وأهل الشَّأ وذوي الججا وأرباب العقول وجهابذة الفحول طودٌ شامخٌ في إنسانيَّته ومروءته.

وهي من هي فتاة في سلاح امرأة وعقل غانية وقلب بنات المواخير قد ساورتها يدُ الحياة عن نفسها فأذعنت ولاذت لكلِّ قبيح مُستهجن.

ولكنَّها على سوء ما كانت عليه.. وفي مكان قصيٍّ من ضواحي قليها، كانت جذوة نور ذاكية تُوشِكُ أن تجعلها بعدُ كُلِّ سَقَطَةٍ قطعة من الآلام، فإذا هي كاسفة البَال، مُتصوِّرةٌ مُطْرِقةٌ لا تجدُ لتلك الصُّدُوعِ التي غَزَّتْ كَيانها التَّئاماً، فهي في كُلِّ ما مضى ثلثة لا تُسد، وفي كُلِّ ما هوأت شُرخ أخذٌ في الاتساع.

ولم تجد من تُطارحُه همَّها وتُبَيِّثُه شكاة نفسها ولواعج ما تحتل، فاستسلمت لمدامعها ورأت في ماء عينيها ينبوع حياة تستقي منه البقاء.. ومن سُؤم النَّفْسِ أَنَّهُ لا تسعى لإسعادها إلاَّ لتشقى.. وما أحكم ما نقول لمن يُعالج لذاته: كُنْ عدُوَّ نَفْسِكَ تَبْراً!.. ومن سُؤم الذَّنْبِ أَنَّهُ لا تُقارِفُه إلاَّ لِتُخَيِّلَ بما يُشاكله، فإن أنت لم تتجرَّع من أجل الإحجام عنه جِسام الأوجاع النَّفْسِيَّة التي تَلِدُكَ من بعدُ كيوم ولدتك أمُّك، وَلَدَ هو من صنوف الخطايا والآثام ما إنَّ الجبال لتَنوَّع عن جمل مثله.

ولَكِنَّ الله شاء لهذه الفتاة المسكينة أن تُعَرِّج في يوم شتائيٍّ ما طر على المكتبة تحتمي بها من وابل الودق المنهل عليها، واتَّخَذَتْ ركناً منعزلاً عساها ترتاح قليلاً من أعين الناس التي تلتهمها بالعشي والإبكار، وهي في حالتها تلك تُعالج مخاضها النَّفْسِي وهو على بعد شبر منها يُعالج آلام مخاضه الفكري، وهما في مخاضهما كلٌّ يلد فلسفة من فلسفات الوجود منطرحا في مندوحة من عمل قلبه وعقله، وإذ بعينهما تلتقيان في غفلة من أمرهما، وإذ بسَيَّال فكرهما يُغازل بعضه، وإذ بحديث الحَاظِهما يُترجم حديث ما قَال وَقَالَتْ! [اه].



أبصرت فمهُ، لحسبته فوهة مغارة على جبل مهجور.. قد تساقطت أسنانه إلا قليلا، والذي نجا منها يُغلفه صديدٌ أكاد أجزم غير مرتابٍ أنه لن يُزيله حتى كير الحداد!

كان مكتنفا سيجارة تبغ من نوع عتيدي جدا، ينفخ فيها كأنما ينفخ في بوق؛ لكن نفخة إلى جوفه لا في الهواء.. كان نفخه مصحوبا بدخان كثيف، يُنبئ بتاريخ حافل وخبرة متطاولة في عالم التدخين (!).. خيل إلي من منظر سيجارته التي ثبتهما بين الإبهام والوسطى، ومن صورة شفتيه اللتين لم يُزحزحهما إلا بقدر ضئيل لطرح الدخان العالق في رثتيه؛ خيل إلي كأنه قطار بخاري يسير على سكة مستقيمة، إلا أن قطار صاحبنا ثابت، والسكة من تتحرك بدله، وربما هذا الذي دفعه ليظل ثابتا في كرسيه، يُجذف بقدميه يمنة ويسرة!

من يراه غارقاً في تفكير عميق، يحسب أنه قد حُلل تدابير الكون، وأنه قد انتهت إليه أعباء الأمم وهمومها.. وفي غمرة من غمرات هذا التفكير الطويل، نسي أن يتخلص من رماد سيجارته؛ فهرعت أضغ بين يديه منفضة السجائر، ففزع من الأمر وكاد يُحرق ثيابه، وبدون شعور منه راح يلقي جل الرماد على الطاولة، وشيئا نزيهاً في منفضة السجائر، ولُبُهة عاد إليه الرشد؛ فقال متلظاً الكلمات:

- صبحاً، صبحاً ...

وعاد إلى جنونه مرة أخرى، بعد غربة اضطّر لها!

لم أفهم سبب عبوسه للوهلة الأولى، وهو المسافر بعقله وروحه إلى دنيا غير دنيا الناس، وكأن العالم الذي يتقاسمه كل البشر، قد اختزله في كرة رأسه، كذا يفعل الخيال بالمرء، والجنون أيضاً!

في ذلك الحين بدأ نفر من الشبان الطائشين داخل المقهى، بالتدافع والتراشق بالكلمات النابية، ممارسين مُشاكساتهم فيما بينهم، وأحسب «المجنون» قد استأنس بلعهم؛ فكما عاد إلى دنيا العقلاء فشكرني على صنيعي، زاره هؤلاء الطائشون بنفس الطريقة في

عالم جنونه بشغهم ومشاكساتهم، ليرجّب بهم بابتسامة خاطفة!

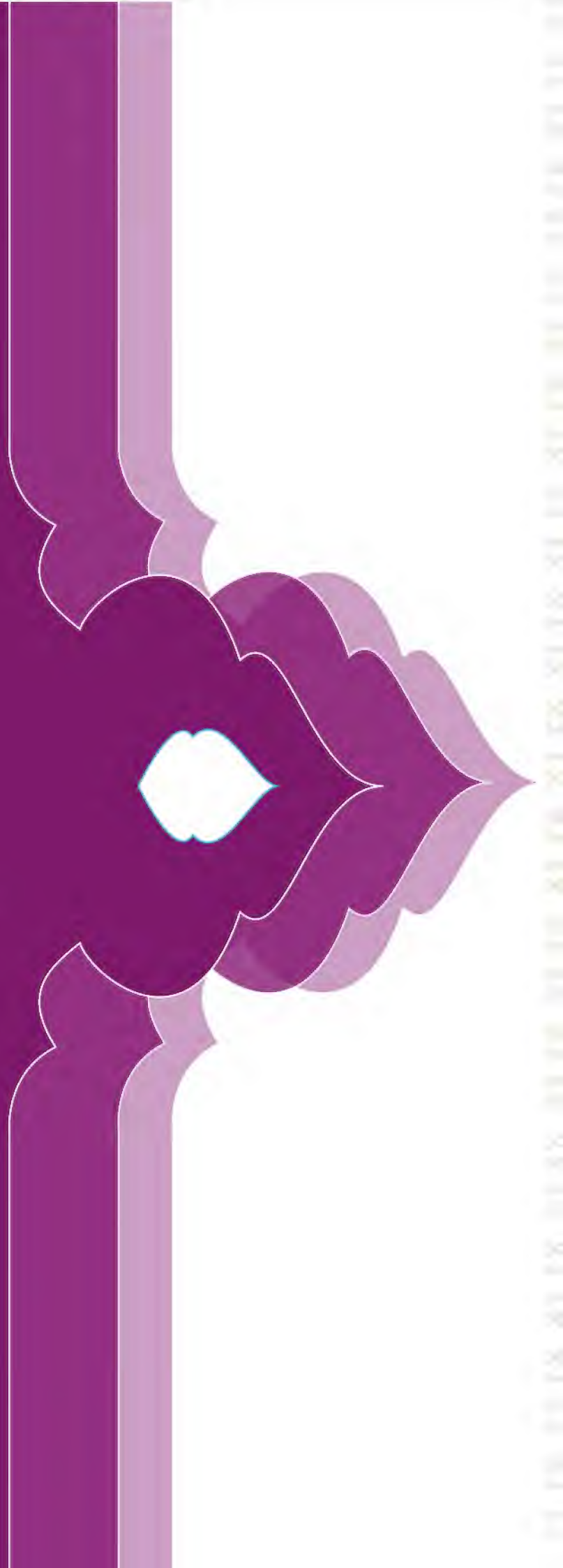
انتهت السيجارة الأولى، فهم بإطفائها.. أدخل يده إلى مستودع الذخيرة في جيب سترته، واستخرج سيجارة أخرى، فرجع ليتحسس الجمرة في السيجارة الأولى فنسي أنه قد أحمدها.. وكأن الأحداث ليس لها ترتيب في رأسه، فقدرته الإدراكية جعلته متأخراً قليلاً عما يحدث من حوله، فالسيجارة في رأسه ما تزال متقيدة وجمرها ما يزال مُستعلاً، وهو يحاول جاهداً أن ينقذها من الموت المحتّم، لذا كان يضغط بقوة، في حزم وعزم.. ساءني منظره وهو يحاول، ويُحاول بلا جدوى.. في تلك اللحظة، وصل صديقي «حكيم»، الذي كان مبتلياً بشرب الدخان أيضاً، فطلبت منه أن يُشعل -لهذا المخبول- سيجارته قبل أن يُصورنا له جنونه كعيدان ثقاب!

أوقد له «حكيم» السيجارة، واستأنفت سكة الحديد رحلتها على هذا القطار البخاري؛ وعاد ليُجذف بقدميه من جديد! [اه].





# حریت حریت





# حديث

## اللغة الأم ومسؤولية الحفاظ عليها

عيد المومن تلايلف

ولنتأمل في بعض الشعوب التي كانت بالأمس القريب أمما دوننا حضارة وثقافة، وأصبحت اليوم تضاهي الأمم الكبيرة، ليس بشيء إلا بتمسكها بلغتها وثقافتها وهويتها وفقط، فهي تركيا قد أصبحت فاعلا سياسيا في المنطقة، سياسيا وثقافيا، وعلى كل الأصعدة، فقد أصبحت المسلسلات التركية ظاهرة السنوات الأخيرة، نشاهدها أينما اتجهنا، وحيث ما ولينا وجوهنا، وأصبحت تترجم إلى اللهجات المحلية العربية، وقد تخطى تأثيرها كل التوقعات، حتى أصبح الآباء يسمون أبناءهم بأسماء تركية، أو شاهدوها في مسلسلات تركية على الأقل، وليس هذا إلا لأنها نجحت في فرض هويتها ولغتها وثقافتها، فأصبحت تسوّق لثقافتها، وتنشر عاداتها وتقاليدها من خلالها على العرب وعلى العالم، ونحن لاهون بالكراسي والمسؤوليات، ومن حولنا يتفرجون ضاحكين، وصدق من قال: يا أمة ضحكت من جهلها الأمم.

**تحتفل المنظمة العالمية للتربية والثقافة والعلوم (يونسكو) كل عام باليوم العالمي للغة الأم؛ المصادف ليوم ٢١ فبراير من كل سنة، والذي أعلنته المنظمة التابعة للأمم المتحدة أثناء مؤتمر عام في شهر نوفمبر سنة ١٩٩٩، عملاً بموقفها الداعي للدفاع عن التنوع الثقافي وتعدد اللغات في العالم.**

وهنا نطرح تساؤلا عن مدى استخدام الأمة العربية للغتها الأم، في ظل سيطرة اللغات الأعجمية على مختلف مظاهر الحياة، السياسية والاقتصادية وحتى الأدبية، وهو الوضع الذي بات يقلق الغيورين على لغتنا التي اختارها الله -دون سواها- كي تكون ترجمانا لكلامه ورسالته الخالدة. والحق أنه لو لم تكن العربية لسان كلام العلي القدير؛ لربما اندثرت وتلاشت، ولم نعد نسمع بها إلا في كُتُب التاريخ كأنها أثر من آثار الأمم البائدة، إذ القرآن هو الذي حفظها وصانها من الزوال والتلاشي، بل كان السبب الوحيد الذي قادها نحو التوسع والانتشار..

إن السؤال الحقيقي اليوم، هو ماذا قدمت الأمة العربية للغتها الأم؟ وما مستقبل اللغة العربية في وطنها، فضلا على مستقبلها في العالم؟ إذ إننا أصبحنا نرى ونلمس خدمات جليلة تقدمها هيئات ومؤسسات غير عربية، أفضل مما تقدمه مثيلاتها العربية، ومنه قرار الحكومة التركية تدريس اللغة العربية في المدارس الحكومية، فالعربية خدما غير العرب أكثر مما خدما المنتسبون إليها من أبنائها، على حد تعبير الدكتور عبد الرزاق قسّوم في إحدى الحصص التي تبثها القناة الأولى الحكومية.

يجب على الأمة العربية أن تعي أنه لن تتقدم أمة إلا بلغتها وثقافتها وحضارتها، وليس بتبني لغة أخرى وثقافة دخيلة،



ومن الأمثلة الأخرى؛ ماليزيا، التي أصبحت في طليعة الأمم في المجالات الثقافية والاقتصادية والحضارية، فعندما تجد الجامعات الماليزية في أعلى سلم الجامعات في العالم من حيث الإنتاج العلمي، تعرف أنها أمة نجحت ثقافيا، وهي التي كانت غير بعيد تتخبط في غياهب الفقر والجهل.



قرأت مؤخراً مقالا في إحدى الصحف عن منع إيران قرابة عشرة ملايين إيراني من تعلم لغتهم الأم وهي اللغة العربية، حيث يُمنع منعاً باتاً على المؤسسات المستقلة غير النفعية تدشين مدارس لتعليم العربية، ولا نشر صحف ومجلات بهذه اللغة، ولا حتى التحدث بها في المدارس والمنشآت العامة والحكومية ولا تسمية المواليد بأسماء عربية، فأين مسؤولية اليونسكو من كل هذا، أم أنها معنية فقط بتحديد أيام ومناسبات، ولا تكثر لما يحدث للمعنيين بتلك المناسبات؟ وأين الحكومات العربية من كل هذا؟ لم لا تمارس ضغطاً سياسياً من أجل السماح بحقوق عرب إيران المشروعة؟

من جهة أخرى، أرى أن الأزمة التي تمر بها المنطقة العربية، وسوريا على الخصوص، ستعود بالنفع على اللغة العربية

مرحبا



## اليوم العالمي للغة الأم

بطريقة ما، إذ إن الأعداد الهائلة للاجئين في أوروبا ستفرض على هذه الدول أخذ لغتهم الأم بعين الاعتبار، وهو ما حدث في مملكة بلجيكا، حيث سن قانون بموجبه يتم تخصيص حصة في المدارس الحكومية حول الدين الإسلامي إذا وُجد طالب مسلم واحد على الأقل في القسم، فلم لا يتم الضغط على المستوى الدبلوماسي من أجل تخصيص حصة للغة العربية لأبناء الجالية الراغبة في تدريس أبنائهم لغتهم الأم.

في ذات النسق، أقدمت السلطات الألمانية بخطوة تحسب

لغة العربية، عندما أعدت نشرات باللغة العربية للاجئين.

أذكر مرة أنني شاهدت على التلفزيون الرسمي للجمهورية الجزائرية وفي النشرة الرئيسية، تصريحاً لأحد مسؤولينا، بمعينة السفير الأمريكي في الجزائر آنذاك، وهو السيد «روبرت فورد»، حيث أطل علينا المسؤول الذي يمثل الدولة الجزائرية، والتي تعتبر العربية اللغة الرسمية الوحيدة (قبل دسترة اللغة الأمازيغية)، أطل علينا بلغة فولتير، وكم كانت دهشة كبيرة عندما أدلى السفير بتصريحه بلغة عربية فصيحة، يفقدها الكثير من مسؤولينا..

وأذكر مرة أنني قرأت عن وزير فرنسي كان يعقد ندوة صحفية، وكان يتقن عدة لغات، فكان في كل مرة يصبر على الإجابة بلغة بلده الرسمية، إلا سؤالاً واحداً كان باللغة الألمانية، أجاب عنه بالألمانية، فأتار هذا التصرف أحد الصحفيين الفضوليين، فسأله لماذا أجبت عن السؤال بالألمانية مع أنك أجبت عن كل الأسئلة باللغة الفرنسية؟ فرد عليه بأن كل الأسئلة السابقة كانت توجه له بصفته وزيراً في الدولة الفرنسية، وأن عليه أن يحترم الدستور والمشاريع الفرنسية، لكن السؤال الأخير كان سؤالاً شخصياً، وله الحرية في الإجابة باللغة التي يشاء.

بهذه العقلية ترتقي اللغة وتندهر، كيف لا، واللغة العربية تحتل المرتبة الرابعة من حيث عدد الناطقين بها في العالم، بينما تحتل الفرنسية المرتبة التاسعة، ورغم ذلك، نجدها لغة العلم، ولغة الإدارة في بلد لغته الدستورية هي العربية، وإن تم التحجج بكون الإطارات مفرنسة، وأنه يتطلب وقت من أجل التحول إلى اللغة العربية، فإننا قد قطعنا نصف قرن من الاستقلال، ودارلقمان على حالها، بل زادت سوءاً، لأننا الآن تكلمنا العربية بلغة لا تشبه العربية في شيء، ولا الفرنسية، أصبحت لغتنا هجينة، فانطبق علينا بحق المثل الشعبي: أراد الغراب أن يمشي مشية الحمامة، فلا هو بمشيته، ولا هو بمشيته.

يبقى علينا نحن أبناء العربية أن نعمل جاهدين من أجل لغتنا، وأن لا ننتظر من غيرنا أن يقيم لها اعتباراً، وكفانا تغنياً بأمجاد الماضي، أمجاد لم نصنعها، بل ورثناها، وليتنا استطعنا الحفاظ عليها، بل على التقيض من ذلك، أضعناها، ونكاد نفقدها كلية، إن لم يتحرك الضمير العربي، فإنه وللأسف سوف تضيع العربية. [ها].



## «يحيى بختي»

### الشاعر المجاهد يوارى التراب!

عبد المومن تلايلف

بعين وسارة، إلى أن قدم استقالته عام 1971 .

هاجر إلى فرنسا وهناك أصدر قصيدته الشهيرة المسماة «الإلياذة الشعبية»، ومن قصائده المشهورة أيضا: «سجل يا تاريخ» التي غناها الراحل «خليفة أحمد».

شارك المجاهد بختي الحاج يحيى -رحمه الله- الملقب بشاعر أولاد نايل، في عدة مهرجانات ونال عدة جوائز وكرّم في عدة مناسبات، وتمت دراسة أشعاره من طرف الطلبة والباحثين لنيل شهادات الماجستير والدكتوراه من مختلف الجامعات الجزائرية، وقد امتازت دواوينه بكثرة القصائد وتعدد الأغراض الشعرية؛ من غزل ومدح وهجاء ورناء وخاصة الشعر الوطني.

يعتبر الراحل مرجعا للباحثين في الأدب الشعبي، ومنهلا للشعراء والأدباء جميعا، لما كان يحمله أدبه من فصاحة، وعبارات ذوات الدلالة.

هذا، وقد ووري الثرى في ذات اليوم (يوم الخميس 25 جانفي 2016) بمقبرة «بلدية بايزيد» في ولاية الجلفة، رحمه الله رحمة واسعة.[اه].

انتقل صبيحة يوم الخميس 22 جانفي 2016 إلى جوار ربّه، أحد فحول الشعر الشعبي بولاية الجلفة، المغفور له بإذن الله تعالى المجاهد «يحيى بختي» عن عمر ناهز 85 سنة، بعد مرض عضال ألزمه الفراش ردحا من الزمن.

ولد يحيى بختي عام 1931 في سيدي بايزيد بولاية الجلفة، تعلم وحفظ القرآن الكريم بمنطقة حد الصحاري في الفترة ما بين 1936-1943م على يد شيوخ من عشيرته، أمثال الشيخ محمد بن يحيى بن علي، وأبو بكر بن عمر مسروقي. تخرج بإجازة بناء في مدرسة التكوين المهني بالعفرون، والتحق بعدها بالكشافة الإسلامية الجزائرية، وبدأ نظم الشعر وهو لم يُجاوز السابعة عشرة من عمره.

الفقيد من مجاهدي منطقة أولاد نايل، أو ما تعرف اليوم بولاية الجلفة، فقد لبى نداء التحرر من المستعمر الفرنسي بمجرد ارتداد صدى الثورة الجزائرية إلى سمعه، بحيث كان له دور بارز في المقاومة في المنطقة، وسعى إلى ذلك سعيا حثيثا، ففي عام 1955 عقد اجتماعا مع زملائه من أجل شراء الأسلحة لتمويل الحركة الثورية في المنطقة، كما اتصل لهذا الغرض بالمناضل «عمور عمر» بالمليحة. وفي العام 1956 اتصل بقيادة الثورة في المنطقة، فعمل تحت قيادة كل من الشيخ «زيان عاشور» والرائد «عمر إدريس»، ليكلف بمسؤولية الاتصال بين الولايتين التاريخيتين الخامسة والسادسة. اتجه في سبتمبر 1957 رفقة مجموعة من المجاهدين تحت قيادة «عمر إدريس» إلى المغرب الأقصى في عملية تهريب السلاح إلى الجزائر.

واصل مسيرته بعد الاستقلال وتولى مسؤوليات عدة، فكان مسؤولا في محافظة الغابات بمدينة حد الصحاري، وانتُخب لثلاث فترات متتالية في مجلسها البلدي، كما كان مسؤولا في حزب جبهة التحرير الوطني

يحيى بختي



من التراث





# من التراث



عام 1942 إلى جامع «الزيتونة» بتونس ليتعلم علوم الدين، وعاد إلى الجزائر العاصمة بداية العام 1949.

انتهج «سي الطاهر» النهج السياسي الاشتراكي، وتبنى الشيوعية ودافع عنها، وقد بدا عليه هذا النحو ظاهرا جليا، سواء في حياته بصفة عامة؛ أو من خلال أعماله الأدبية والفكرية، وقال عنها «إن الاشتراكية جميلة ومعدنها طيب، إنها تعني في النهاية الحق المتساوي من الشمس على البشرية جمعاء، ثم إن الاشتراكية مذهب كل العظماء من الكتاب والشعراء، قد يستحيل أن تكون ليبراليا وتفكر في قوت الفقراء».

انتمى الطاهر بن عيشة لحزب الشعب الجزائري، ثم ما لبث أن التحق بجهة التحرير الوطني بعد اندلاع حرب الاستقلال عام 1954، مثله في ذلك مثل أي غيور على بلده، حريص على الحقوق المسلوبة لأبناء وطنه، متطلع نحو آفاق الحرية والانعتاق من برائن الاستعمار الساعي لاجتثاث الشعب وإفراغه من هويته الوطنية.

## • الطاهر بن عيشة عميد الصحفيين الجزائريين

عند استقلال الجزائر فضل الطاهر بن عيشة العمل في قطاع التعليم على العمل لدى الإدارة، ثم التحق بمهنة الصحافة، حيث كان قد بدأ مسيرته الإعلامية منذ أربعينيات القرن الماضي، إذ نشر عدة مقالات في صحف ومجلات من بينها «عصا موسى» التي كان هو مؤسسها مع أستاذه السعيد الزاهري والتي أصدرها عام 1950، وكان ينفق



## «الطاهر بن عيشة»

فقيه الفكر و الصحافة والبحث العلمي

عبد المؤمن تلايف

توفي ليلة الثاني من شهر جانفي من السنة الجديدة، المثقف والإعلامي الجزائري «الطاهر بن عيشة» في الجزائر العاصمة عن عمر تاهز ٩٠ عاما، إثر مرض الزمه الفراش مدة طويلة حسبما علم من عائلته، وقد ووري الفقيه الثرى بمسقط رأسه في مدينة «قمار» بوادي سوف يوم الرابع من الشهر نفسه، تاركا فراغا ثقافيا وفكريا، إذ يعد رحيله خسارة للحركة الثقافية الفكرية للجزائر وللعرب.

وقد تزامن رحيل الأديب الكبير، والمجاهد «الطاهر بن عيشة» الذي يوصف بالأديب الشيوعي الجزائري، مع وفاة الألب الروحي للمعارضة في الجزائر «حسين آيت أحمد»، ويشكل هذا التزامن نقطة التقاء تضاف إلى العديد من نقاط التشابه والتقاطع التي جمعت بين الرجل السياسي والأديب، وهو الذي صرح ذات مرة بخصوص عدم إصداره لمؤلف يجمع بعض أفكاره وتوجهاته الأدبية والفكرية، وربما حتى السياسية؛ قائلا إنه انشغل في البداية بالنضال، ثم شغلته بعدها الخيبة\*، لأنه لم يكن راضيا عما تمخضت عنه الصراعات السياسية عقب الاستقلال.

• مسيرة رجل..

ولد الطاهر بن عيشة في مدينة «قمار» التابعة لولاية «الوادي» عام 1925، وبعد أن أتم تعليمه الابتدائي؛ انتقل



على إصدارها الشيخ الطيب العقبي رحمه الله، ولكن السلطات الاستعمارية أوقفتها بعد صدور 16 عددا منها بسبب المواقف الجريئة التي كانت تتضمنها ضد الاستعمار وسياسته الاندماجية وضد أعوانه.

وعن كيفية انضمام سي الطاهر إلى مؤسسة الإذاعة والتلفزيون في نوفمبر عام 1962، فقد كانت كيفية غربية حقا، فمع بداية الدخول الاجتماعي أرسل سي الطاهر طلبين للتوظيف لوزارتي العدل والتربية، وجاءته الموافقة من الوزارتين معا، الأولى ليكون قاضيا في واد الفضة بعين الدفلى، والثانية بالقبول معلما في حجوط بتيبازة، لكنه فضل التعليم لقرب حجوط من الجزائر العاصمة، ثم لم يلبث أن أرسل المعلم سي الطاهر نصا يتضمن ستا وثلاثين صفحة للإذاعة والتلفزيون آنذاك يتعرض فيه للتناقضات التي عرفت الثورة، لكنه لم يرفق النص باسمه، بل بعته باسم مجهول، وعندما وقع في أيدي أعضاء لجنة قراءة النصوص التي تم تنصيبها مباشرة بعد استعادة السيادة على مؤسسة الإذاعة والتلفزيون يوم 28 أكتوبر، أعجب الجميع بالنص الذي لم يعرفوا صاحبه، وراح الراحل عيسى مسعودي أول مدير عام للمؤسسة يحث الجميع على البحث عن صاحب النص المجهول. وكان من محاسن الصدف أن السيد عبد العزيز شكري الذي رفع العلم الوطني فوق مبنى المؤسسة، تعرف على خط سي الطاهر لمعرفته السابقة به، فأرسل لأعضاء اللجنة باسم صاحب النص، فما كان من المدير العام إلا أن دعاه ليباشر العمل بالإذاعة، قائلا: هذا الرجل الذي أعرفه، مهمته العمل في الإذاعة وليس التعليم!

وهكذا كانت بداية سي الطاهر مع الإذاعة التي انكب فيها بكل جد ومثابرة على إعداد وكتابة أربعة برامج أسبوعية، من بينها: صوت العمال، ومنك السؤال والجواب، ونافذة على إفريقيا.

ولم يكتف الطاهر بن عيشة بالعمل الإذاعي وحده، بل أسهم مع صديقه السابق المرحوم الطاهر وطاري في إنشاء جريدة «الجماهير»، و«ثورة وعمل» اللسان الناطق باسم الاتحاد العام للعمال الجزائريين بعد الاستقلال، ثم ما لبث أن دشّن مساره الوثائقي عبر حلقات تلفزيونية ركزت على حقوق العمال، وبعدها انطلق في هذا المجال.

تكبد الرجل الكثير من العناء والصعوبات والتقلبات في حياته، وناله من قسوة الحياة وأهوالها ومرها ومن تشريد عن بيته وزوجته وأبنائه خلال سنوات الإرهاب الأعمى في التسعينيات، حيث كان مهددا بالموت والقتل في كل لحظة، مثله مثل كل الصحفيين والمثقفين المتميزين آنذاك، ورغم أنه

كان أول صحفي جزائري يُجبر على التقاعد المسبق دون السن القانونية للتقاعد في الجزائر، بسبب أفكاره السياسية، ورغم السجن الذي عانى منه إبان الاحتلال، فإن شيخ المجادلين اليساريين دون منازع، بقي صامدا ضد ثقافة الجحود والتكرار والنسيان وضد الانحرافات أيا كان شكلها، بل بقي صامدا ضد ما اعتبره انحرافا عن مبادئ قامت عليها ثورة التحرير، إذ لم يكن الغرض منها تحرير الأرض فقط حسبه، بل كانت أيضا من أجل عتق العقول التي لم تتحرر بالكامل، وكان يرى ضرورة مواصلة العمل من أجل بلوغ المرام.

استطاع الرجل أن يفرض احترامه على الغير، لثقافته الواسعة في الدين والأدب والتاريخ والفلسفة، وفي تاريخ الشخصيات البارزة وطنيا وعالميا وإسلاميا، فقد كان موسوعة متنقلة بحق، وذاكرة حية عن التاريخ في الوطن بل والتاريخ الإسلامي رغم ما يقال أنه شديد التعصب للفكر اليساري، إلا أن وطنيته المفرطة وتعفّفه عن المادة وعن المناصب والجري وراءها، أكسبه مودة واحتراما بالغين.

ويعد الشيخ سعيد الزاهري من بين الرجال الذين عرفهم سي الطاهر وأخذ عنهم وتأثر بهم، ويحكي عنهم بإعجاب وتقدير كبيرين، ويعتبره مثله الأعلى في المواقف والجرأة والكتابة الراقية شعرا ونثرا، إذ يرى أنه شخصية نادرة لن تتكرر، وأن هذا الرجل صاحب المواقف الإصلاحية الجريئة لا يرقى إليه شخص آخر في الكتابة النثرية والشعرية والخطابة والفصاحة والمواقف، ويظن أن شخصيته القوية الأسرة واحدة من العوامل التي عجلت للأسف بتصفيته جسديا إبان الثورة.

ومما يذكر عن بن عيشة، أنه كان يتحدث بإعجاب كبير عن البطل الكبير الشهيد مصطفى بن بولعيد، الذي التقاه أكثر من مرة عندما أوقفه حزب الشعب الجزائري للقيام بحملة انتخابية لصالح الحزب في انتخابات عام 1948 في الأوراس والزيبان، ويرى أنه كان وطنيا كبيرا وعملاقا أوراسيا متزنا وهادئا، تنفذ كلماته إلى العقل كالرصاصة التي لا تخطئ الهدف.

كانت للراحل بصمة في ثورة التحرير المجيدة منذ يومها الأول؛ حيث شارك في انطلاق شرارتها الأولى، حيث قام صحبة رفيق دربه في حزب الشعب عبد الكريم هالي. بعملية سبقت اندلاع شرارة أول نوفمبر بأيام، وكان ذلك يوم 8 أكتوبر، وتمثلت هذه العملية في إحراق متجر أحد اليهود المعروفين بمعاداتهم الكبيرة للجزائريين في قلب مدينة الجزائر، وشد الرجال بعدها إلى فرنسا في مهمة أوكلت إليه من أجل تمويل الثورة بالسلاح، فلبى النداء، رغم أنه لم يكن يحسن التكلم بالفرنسية. وفي



باريس التقى بالسيد «مصالي الحاج» لأول مرة قبيل اندلاع الثورة، وهنا يذكر «سي الطاهر» اكتشافه لحقيقة غزارة علم مصالي الحاج، إذ فوجئ بثقافة الرجل وموسوعيته، وهو الذي كان يسمع أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، لكنه استغرب في ذات الوقت من ردة فعل زعيم الحركة الوطنية عندما تحدثا عن ضرورة انطلاق العمل المسلح، إذ لمس منه عدم التحمس لذلك، بدعوى أن الوقت لم يحن بعد.

وممن تعرف عليهم في تلك الفترة، العقيد «محمدي السعيد» والعقيد الشهيد «عميروش»، حيث مكث بصحبة هذا الأخير كما يقول قرابة شهر ونصف على الحدود الجزائرية التونسية.

عمل سي الطاهر في الصحافة المكتوبة، وأنتج للمسرح، وأنتج العديد من البرامج والأشرطة للإذاعة والتلفزيون، ومارس السياسة قبل ذلك بمنطق المناضلين الشرفاء، بل وعمل في مهن أخرى من بينها التعليم الذي هرب منه الراحل عيسى مسعودي. ورغم ما عرف به من أدبه وثقافته الواسعتين، فإنه لم يطبع أي كتاب يحفظ به ما تركه للأجيال من أعمال، ليرك هذه المهمة للهيئات المعنية والوصية بالشأن الثقافي وعلى رأسها وزارة الثقافة، وهيئة المكتبة الوطنية، إذ ترك رصيда لا يستهان به من مقالات ومحاضرات وبرامج إذاعية وأشرطة وتقاير تلفزيونية على امتداد نحو سبعين عاما، حتى يستفيد منها الباحثون والمهتمون بأدب وأعمال الراحل.

خلال فترة إعدادي لهذه المقالة حول الرجل الكبير، علمت أنه من الرجال الكبار الذين أنجبهم الجزائر، وأنه كان سيدا في كلمته وفكره، فلم يرضخ للضغوطات التي مورست عليه، سواء من قبل النظام السياسي الذي كان ينتقده في كل مناسبة، أو من طرف من ظنوا أنه على غير الجادة والطريق القويم.



الطاهر بن عيشة

وعرفت أيضا أنه كان من أشد المدافعين عن اللغة العربية، وعن ضرورة النهوض بها من خلال تشجيع الأدباء والمفكرين، وأنه كان مسلما متدينا لكنه كان يساريا.

وعلى عكس ما يروج له هنا وهناك، فقد أنتج العديد من التقارير حول الإسلام في إفريقيا والأندلس، والتي كان لها الفضل في زيادة الشعور بالانتماء للإسلام في الفترة التي تلت الاستقلال، إذ لا يخفى ضعف الوضع الديني حينها حيث كانت مخلفات الاستعمار لا تزال سائدة، من انتشار البدع والخرافات التي كان المحتل الظالم يشجعها، كما أنه أدى مناسك الحج.

هذه صورة غير مكبرة عن رجل كبير ثقافة، وثاقب رؤية، وأصيل فهما، وخفيف روحا، عن رجل لم يؤمن إلا بأفكاره التي بذل حياته فداها، ويبقى على من عاصروه وعرفوه عن قرب أن يدلوا بشاهداتهم حول الرجل، حتى لا يندثر اسمه وهو الذي أعطى الجزائر في الثورة والصحافة والتعليم والأدب والفكر والسياسة.

قال الطاهر بن عيشة عن نفسه «لم يحدث أن ندمت يوماً عن شيء قلته، فمذ زمن طويل لا أقول إلا الحقيقة، لا أرحم لا حاكماً ولا محكوماً».

#### • الرحيل..

ليلة الثاني من شهر جانفي 2016، انتقل إلى رحمة الله، الكاتب الصحفي القدير الأستاذ الطاهر بن عيشة بمستشفى الدورية بالجزائر العاصمة عن عمر ناهز 90 عاما، إثر تدهور صحته في السنتين الأخيرتين، ومرض عضال ألزمه الفراش فترة طويلة. وكان الطاهر قد أصيب بمرض الزهايمر في الأشهر الأخيرة من حياته، حيث أوصى قبل الوفاة بدفنه في مسقط رأسه بمدينة قمار بوادي سوف.

يعتبر بن عيشة بمثابة ذاكرة للجزائر المعاصرة لعمق ثقافته ورسوخ أفكاره فيما هو حداثي وعقلاني. وقد ترك اليساري ذو النزعة العلمانية رصيда إبداعيا ضخما على أكثر من صعيد. كما خاض تجارب نضالية وثقافية وإنسانية على مدى نصف قرن. [اه].



## ابن أبي حجلة

### أوراق بحثية في التراث الأدبي الجزائري

عادل حميد

«تراث الجزائر» مهما شطت عن سفينة الحضارة هو شراعها الذي لا بد أن ترفعه شعارا في وجه رياح العولة والجدائة المزعومة؛ كما رفعت من قبل في وجه الاستخراب الفرنسي، فحافظت به على كينونتها ووجودها من الشمس والاندثار وأبقت للخلف من أمتند صرحا شامخا أسس بنيانه على بينة من السلف، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها<sup>(1)</sup>.

وعراقة الجزائر في الأدب من عراقة تاريخها المجيد، ولا ينكر مكانة تراثنا بين الأمم إلا جاحد مُعاند، أو جاهل جامد<sup>(2)</sup>، غير أنّ هذه الثروة من التراث ما يزال أكثرها دفيناً أو حبيساً بين رفوف المكتبات (في الجزائر وخارجها)، ولم نحاول -نحن أجيال الاستقلال، إلا ما ندر- إخراجها في أحسن صورة تليق بها، ينتفع بها المتعطشون للأدب والإبداع، ويتعرّف من خلالها طلاب التراث الجزائري على: مميّزاته، خصائصه، إنجازاته، أسرارهِ، وقيّمته الفنّية.

وإنّا في هذه الورقة البحثيّة المتواضعة لا نهدف إلا إلى تسليط الضوء على المغمورين أو المنسيين من أدباء الجزائر وفطاحل شعرائها المتقدمين؛ لعلّ الله يوفّق باحثينا أو يُخرج من أصلابنا من يتولّى خدمة هذا الكنز الذي يُفتدى بملء الأرض ذهباً وفضّة.

ونبدأ رحلتنا الشاقّة (والممتعة) من «تلمسان» العراقة والأصالة، حاضرة الأدب والعلوم على مدار تاريخ الجزائر، والمدينة الولود المنجبة المُخصّبة التي تخرّج في كتابتها ومدارسها ومساجدها وزواياها؛ كوكبة معدودة في نجوم الشعر والتّرو والمقامات والأدب، غير معدودة في الإحصاء ولغة الأرقام؛ منهم أعجوبة زمانه وفريد عصره «ابن أبي حجلة».

• نسبه، نشأته، مؤلفاته

• هو «أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد، شهاب الدّين»<sup>(3)</sup>، ولد في «تلمسان» بزاوية جدّه أبي حجلة<sup>(4)</sup> سنة

725هـ، وتعلّم وعلم فيها، ثمّ سافر إلى الحجّ -مع أبويه وإخوته- ولم يرجع إليها، سكن «دمشق» مدّة، ونزل «القاهرة» واشتهر فيها جدّاً، وولي مشيخة الصّوفيّة بصهرج (مدرسة) الأمير «منجك» اليوسفيّ بظاهر القاهرة، ومات فيها بالطّاعون سنة 776هـ، أي مات -رحمه الله- وعمره 51 سنة.

كان حنفيّاً يميل إلى مذهب الحنابلة في المعتقّد<sup>(5)</sup>، كثير المروءة والفضل والاستحضار، بارعا في عدّة علوم، وجاوزت مصنّفات ثمانين مصنّفاً<sup>(6)</sup> في الحديث والفقه والنحو والتّراجم والرقائق والتّصوّف والأدب والشّعر والشّطرنج وغيرها. أشهرها «ديوان الصّبا»<sup>(7)</sup>؛ ويضمّ أشهر قصص عشاق العرب الجاهليّين والإسلاميّين، وهو من مجاميعه الجليّة، طبع طبعة حجرية قديمة لا ترقى إلى مكانته، وأكثر كتبه ما تزال مخطوطة لم تر النور بعد، منها ديوان شعره. وأمّا كتابه (وهو مطبوع) «سُكّرذان»<sup>(8)</sup> السّلطان فهو من أهمّ مصادر السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة».

عاصر «ابن أبي حجلة» كبار الشّعراء في العهد المملوكي، منهم: صفّي الدين الحلّي (ت750هـ)، وابن نباتة المصري (ت768هـ) وغيرهما.

وكان يكثر من الحطّ على أهل «الوحدة» وخصوصاً ابن الفارض (ويشّنع عليه أنّه لم يمدح النّبي -عليه الصّلاة والسّلام- بشعر)، وقد امتحن بسببه على يد «السّراج الهندي» قاضي الحنفية، وعارض جميع قصائد ابن الفارض بقصائد نبويّة، وأوصى أن تدفن معه.

• وفي براعته الشعريّة والأدبيّة: يقول ابن تغري بردي: [وقال الشعر الجيّد... وله خمس دواوين (كذا في المطبوع) في مدح





الرَّسُول ﷺ. و«سبع» أراجيز سبعة آلاف بيت، وأما الشعر فله فيه اليد الطولى، والمعاني الغربية، والاختراعات العجيبة، مع كثرة النظم وسرعة البديهة، وخفة الروح، والتخيّل الصحيح<sup>(9)</sup>، وقال عنه تقيّ الدين الغزيّ في الطبقات: [ومهر في الأدب، ونظم الكثير، ونثر فأجاد، وترسل ففاق، وعمل «المقامات»، وغيرها]، وقال في موضع آخر نقلاً عن ابن حجر: [وكان بارعاً في الشعر، مع أنّه لا يحسن العروض، وعارض «المقامات» فأنكروا عليه]، وقال أيضاً: [وله شعر كثير، وعنده أدب غزير، ومن أراد غير ما هنا، فعليه بمراجعة دواوينه، ومطالعة مجاميعه، فإن فيها ما يُقرّ العين، ويشرح الصدر].

**قلت:** ومعنى قوله «لا يحسن العروض» أنّه لم يدرسه دراسة منهجيّة، وأنّه كان يكتب على السجّية، وفي الحقيقة هذه سمة في كثير من علماء الجزائر: أنّهم كانوا يكتبون الشعر على السليقة دون النظّر في علم العروض، ولعلّي أفرد لهذا الباب ورقة بحثيّة خاصّة.

وأما إنكارهم عليه في المقامات التي حاول أن يحاكي بها «الحريري» فلم أجد في ما لديّ من نصوص منها- مطعنا يؤاخذ به؛ بل إليك ما يقوله «أبو العباس القلّشندي» فيه وفي مقامته «الزّعفرانيّة»: [وما قاله صاحبنا الشيخ «شهاب الدّين بن أبي حجلة» الذي كان أغرب من زرقاء اليمامة، وأعجب إذا ركب بغلته وزروره من أبي دلّامة، الأديب الذي كان حجّة العرب، والنّاثر الذي كان بنسبته إلى الطّيور محرّك المناطق، وإلى الشعر صتاجة الأدب، والنّاظم الذي كان إذا أنشد مقاطيعه في التشبيب؛ فاق على المواصيل ذوات الطّرب، والصّديق الذي كانت منه عوائد الوفاء مألوفة، وشيخ الصّوفية الذي لا عجب إذا كانت له المقامات الموصوفة، أسكنه الله فسيح الجنان، وخصّ ذلك الوجه الجميل بالعارض الّهتان؛ من مقامته «الزّعفرانيّة» عن «أبي الرّياش»: (فاعتنقته لدى السّلام، وقلت ما وراءك يا عصام؟! فقد بلغنا أنّ التّيل تزايد دفعه، وأدّى إلى الضّرر نفعه، فقال: خذ العفو، ولا تكدر بذكر التّيل الصّفوف؛ فقد امتزج بالمعصرات ثجّاجه، وأعبي طبيب الغيطان علاجه.. قلت: فما فعل التّغير؟ بجزيرة الطّير، قال: لم يبق بها هاتف يبشر بالصّباح، ولا ساع يسعى برجل ولا طائر يطير بجناح، إلا اتخذ نفقا في الأرض أو سلماً في السّماء، أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء...]<sup>(10)</sup>

والمقامة طويلة جدّاً، غير أنّك ترى في هذه الأسطر القليلة- انسيابية لفظها، وحسن سبكها، وخفة ظلّها، وتناسق سجعها،

وتناغم تراكيبها، وتأثّر بالقرآن والحديث وعلوم الشّرع، وثقافته الموسوعيّة، وتوظيف ذلك كلّ في الأدب بطريقة محبّبة إلى النّفس، خالية من التّكلف، وهو في ذلك يعالج مشكلة بيئيّة حدثت في زمانه بالفعل، وهي: فيضان التّيل بسبب غزارة المطر، وإني لا أرى إنكارهم عليه مقاماته إلا نوعاً من حسد العلماء؛ لما فيها من تجديد يكاد يجعلها أعظم من مقامات الحريريّ.

#### • شذرات من شعره

• وأما شعره (في ما بين يديّ من تصوص) فإنّ سمته الغالبة فيه هي سمات العصر المملوكيّ وخصائصه، على رأسها الإسراف في البديع، ومنه: «التّضمين»<sup>(11)</sup>، وقد برع فيه شاعرنا وأكثر منه، قال ابن حجة الحمويّ: [ومن تضامين شهاب الدّين بن أبي حجلة البديعة قوله:

وَكُنّا مَنَى يَفْرُ النّبيّ قَبيلَة  
نَصَلْ حافتيه بالقنا والقنابل

يَحْكِي سَنَا الفانوس مِنْ بُعْد لَنَا  
بِرُقَاتِ اللَّقْ مَوْهِنَا لَمَعَانَة

فَالنَّارُ مَا اسْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ  
وَالْمَاءُ مَا سَمَخَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

وقال وأجاد:

يَا صَاحِ قَدْ حَضَرَ الْمَدَامُ وَمُنِي تِي  
وَحَظِيْتُ بَعْدَ الْهَجْرِ بِالْإِنْسَانِ

وَحَسَا الْعِذَارُ الْخَدُّ حُسْنًا فَاسْقُرْنِي  
وَأَجْمَلْ حَدِيثَكَ كَمَلُهُ فِي الْكَاسِ<sup>(12)</sup>

وحضور الخمرة وأوصافها بيّن للنّاظر؛ وليس بغريب عن الصّوفيّ أن يستعيرها للتعبير عن الأحوال والمقامات، خاصّة أنّ «ابن أبي حجلة» كان شديد الخلطة لشاربها (وإن لم يشربها)؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر. وإليك هذه المقطوعة الرّاهية في هذا الموضوع؛ يقول:

أَمْعَطُ الْكَاسَاتِ عَنْ عُشَاقِهَا  
يَكْفِيكَ بِالتّعْطِيلِ<sup>(13)</sup> عَيْباً عَائِياً

ذَهَبَتْ كُؤُوشُكَ بِالْمَدَامِ فَقَدْ أَرَى  
لِلنَّاسِ فِيهَا يَعْشَقُونَ مَذَاهِباً



فَمَتَى سَلَكَتَ مِنَ الْمَمُومِ مَهَالِكًا  
صَادَفْتَ فِي فَتْحِ الدُّنَانِ مَطَالِبَا  
وَمَتَى امْتَطَيْتَ مِنَ الْكُؤُوسِ كَمِيَّتَهَا  
أَمْسَيْتَ تَمَثُّي فِي الْمَسْرَةِ رَاكِبَا

وَمَتَى طَرَفْتَ عَيْنِي أَنْسَى دَيْرَهَا  
لَمْ تَلَقْ إِلَّا رَاغِبًا أَوْ رَاهِبَا

ومن غايات شعره كما يرى التقى الغزي وابن حجة والشهاب  
الخفاجي<sup>(14)</sup>؛ قوله:

قُلْ لِلْهَلَالِ وَعَظِيمِ الْأَفْقِ يَسُورُهُ  
حَكِيَتْ طَلْعَةً مِّنْ أَهْوَاهُ بِالْبَلَجِ

لَكَ الْبِشَارَةُ فَاخْلَعْ مَا عَلَيْكَ فَقَدْ  
ذُكِرْتَ ثُمَّ عَلَى مَا فِيكَ مِنْ عَوَجٍ

ومن مستجاد تجنيسه؛ ما نقله ابن حجر -مستحسنًا له  
جدًا- من قوله:

تَقَرَّرَ الْخَالُ عَنْ شَعْرِ بَوَاجِنَتِهِ  
فَلَيْسَ فِي الْخَدِّ غَيْرُ الْخَالِ وَالْخَفَرِ

يَا حُسْنَ ذَاكَ مُحْيَا لَيْسَ فِيهِ سَوَى  
خَالٍ مِنَ الْمُسْكِ فِي خَالٍ مِنَ الشَّعْرِ

ومن هجائه اللاذع في السرقات الشعرية؛ قوله:

إِنَّ ابْنَ أَبِيكَ لَمْ تَزَلْ سَرَقَائَتُهُ  
تَأْتِي بِكُلِّ قَبِيحَةٍ وَقَبِيحِ

نَسَبِ الْمَعَانِي فِي النَّسِيمِ لِنَفْسِهِ  
جَهْلًا فَرَّاحَ كَلَائِمُهُ فِي الرِّيحِ

وبرع أيضا في الإلغاز، فمنه قوله في كلمة «سلطان»:

مَا اسْمُ مُحَمَّدٍ تَحَبَّبَ لِلْقُلُوبِ لِأَنَّهُ  
حَسَنُ الْحُرُوفِ يَجُودُ بِالْإِحْسَانِ

نَصَّ حَيْفُهُ أَمْسَى حَبِيبًا كُلَّمَا  
صَحَّفَتْ أَحْرُقُهُ بِحُسْنِ بَيَانِ

لَوْ جَادَ لِي يَوْمًا بِرُؤْيَا وَجْهِهِ  
نَلْتُ الْمِرَادَ وَعَشْتُ بِالسُّلْطَانِ<sup>(15)</sup>

وأما غزله فغاية في الرقة والسلاسة، منه قوله:

مَالَتْ كَغُضْنٍ مَعَ الْأَرْوَاحِ مَيَّاسٍ  
مِضْرِبَةُ الْحُلِيِّ تَبْدُو لِي بِمُقْيَاسٍ

مَا جَنَّ لَيْلِي وَأَمْسَى حُلِيِّهَا قَلْبًا  
إِلَّا وَتَنَارَ بِهَا جَنِّي وَوَشْوَاسِي

وَلَا بَدَا رَدُّفُهَا الرَّاسِي إِذَا قَعَدْتُ  
إِلَّا وَبَاتَتْ يَدِي مِنْهُ عَلَى رَاسِي

ومنه؛ وما أحسنه!:

شَكُوتٌ إِلَى الْحَبِيبَةِ سَوْءٌ حَظِّي  
وَمَا قَاسَيْتُ مِنْ أَلَمِ الْبِعَادِ

فَقَالَتْ: أَنْتَ حَظُّكَ مِثْلُ عَيْنِي  
فَقُلْتُ: نَعَمْ؛ وَلَكِنْ فِي السَّوَادِ

وله في باب الاكتفاء ببعض الكلمة في الشعر:

يَا رَبَّ إِنَّ النَّيْلَ زَادَ زِيَادَةً  
أَدَّتْ إِلَى هَلُمٍّ وَقَسْرُطٍ تَشْتَّتِ

مَا صَرَّهُ لَوْ جَا عَلَى عَادَاتِهِ  
فِي دَفْعِهِ أَوْ كَانَ يَذْفَعُ بِاللَّيِّ<sup>(16)</sup>

وقال يمدح شعره؛ وأصاب:

نَظْمِي عَالَا وَأَضْبَحَتْ  
أَلْفَافُظُهُ مُنْمَقَةً

فَكُلُّ بَيْتٍ قَلْبُهُ  
فِي سَطْحِ دَارِي طَبَقُهُ

#### • خلاصة

رغم قلة ما بين أيدينا من نصوص شعرية «لابن أبي حجلة» فإنها كافية في تبين خصائص شعره، ومعرفة جودته، وأسلوبه، وقيمه الفنية، ولو ظهر ديوانه (المخطوط) لاكتشفنا أشياء أعمق، وأكثر سحرا وطرافة، غير أنني أختتم ورقتي المتواضعة بجملة من التساؤلات؛ وهي:

1. هل ستعرف مصنفاته طريقها إلى النور؟ وهل سيحرك



2. هل سيحاول مسؤولونا في وزارة الثقافة الحصول على نسخ مصورة (على أقل تقدير) من مخطوطات علماء الجزائر وأدباؤها المندسة في رفوف المكتبات المصرية والسورية، وتوجيهها إلى النشر؟ أم سيكتفون -إلى يوم التناهي- بإقامة المهرجانات الغنائية الراقصة؟

3. لماذا لا تدرس جهود المبدع الجزائري في المدارس والجامعات؟ ولماذا نعتد دائما على جهود المشاركة: الذين لا يدرسون جهود المغاربة إلا لما؟

4. لماذا مصير المبدع الجزائري التهميش دائما؟ مع أنه إذا خرج إلى المشرق أو إلى الغرب طارت شهرته وبلغت الأفاق، وتصدر حركة ثقافية عظيمة خارج بلده كانت هي الأولى بها، كما حصل مع «ابن أبي حجلة» الذي لو بقي في الجزائر ربما لم يحصل على 1% مما حصل عليه في دمشق والقاهرة، وأعرف غيره من الأعلام بالعشرات بل بالمئات من قديم الزمان؛ حصل معهم ذلك (ولعلني أفرد لهم ورقة خاصة)، أم هي تركيبة العقلية الجزائرية: تقدم الأجنبي على حساب المحلي؟ [أه].

(1) العبارة للإمام مالك، انظرها في: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق-سورية، الطبعة: 1409هـ - 1988م: 2/88.

(2) أقول هذا الكلام لأنني رأيت كثيرا من الشباب الغر يزعمون أن ليس للجزائر أثر ثقافي أو حضاري كبير مقارنة ببلدان عربية أخرى، بل وصل بعضهم إلى حد الغلو؛ فزعم أن ليس لنا تاريخ عريق، ولهذا نريد أن نفتد مثل هذه المقالات بمثل هذه المقالات.

(3) انظر ترجمته مفصلة في: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، أحمد بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدراياد-الهند، ط2: 1392هـ-1972م: 1/390-391. و إنباء الغمر بأبناء العمر، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: حسن حبشي، المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة-مصر، الطبعة: 1389هـ - 1969م: 1/96، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية وشركة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة - مصر: 1571-572، ونيل الأمل في ذيل الدول، زين الدين بن شاهين، عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1: 1422هـ - 2002م: 2/91. و الطبقات السنية في تراجم الحنفية، تقي الدين الغزي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي، دمشق - سورية، بدون سنة نشر: 2/124-128، ومعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، عادل نويس، مؤسسة نويس الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، ط2: 1400هـ - 1980م: ص-364 366. وغير هذه المصادر كثير فلتنظر.

(4) قال ابن حجر: كان من الصالحين، وكفي بأبي حجلة لأن حجلة أتت إليه وباضت على كفه.

(5) وهو شيء نادر: حيث إن الحنفية أكثرهم على عقيدة الإمام الماتريدي (القريبة جدا من عقيدة الإمام الأشعري)، وربما تمذهبه بذهب الحنفية لم يأت إلا بعد نزوله مصر. وإلا فإن مذهب الإمام مالك منتشرا في المغرب الإسلامي

(6) انظر عناوينها في: معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى، بيروت - لبنان، ودار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، (بدون سنة نشر): 2/201، و الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط1: 2002م: 268-269 و 4/240، ومعجم أعلام الجزائر: ص365-366.

(7) انظر ما يقول فيه «ابن المقرئ» لتعرف ما أبدعه أجدادك الجزائريون: [أما بعد؛ فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله حدودها، الصادقة بتصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها-وصل الله تعالى عوائد صنعه الجميل لدمها، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها- «ديوان الصباية» وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق على الكثير. واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كل تنظيم ونثير، وأسدي في غزل غزله وألحم، ودل على مصارع شهدائهم من وقف وترحم، فصدق الخير المخير، وطمت اللجة التي لا تعبر، وتآرج من مسراه المسك والعنبر، وقالت العشاق عند طلوع قمره: الله أكبر]. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن المقرئ التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت - لبنان، ط2: 1997م: 6/279.

(8) مركبة من كلمتي «سُكَّر» و«دان»: وعاء السكر، سكرية، غير أنها تستعمل بمعنى وعاء عامة. انظر تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر أن دوزي، ترجمة: محمّد سليم النعبي وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط1: من 1979 - 2000م: 6/107. قلت: ولم أقف عليها في المعاجم القديمة.

(9) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، جمال الدين بن تغيي بري، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (بدون سنة نشر): 2/259-260.

(10) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أبو العباس الفلقشندي، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر دمشق-سورية، ط1: 1987م: 14/317.

(11) التضمين (وهو غير التضمين عند المتقدمين) هو أخذ لفظ بيت أو معناه أو كليهما معا والإضافة عليهما معنى جديدا أو تحويل معناه إلى معنى جديد، وإلا فهو سرقة محضة، وأما الأخذ من القرآن والسنة فهو الاقتباس. ويطلق المعاصرون على التضمين مصطلح التناص.

(12) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت-لبنان، ط1: 1987م: 2/333. قلت: وقد وافقه التقى الغزي في جودة البيتين الأخيرين، وقد أخذهما من بيتين لابن العفيف التلمساني المشهور بالشباب الظريف. انظرهما في الخزانة: 2/97.

(13) يقصد - هنا - بالتعطيل: التعريض بمذهب المتأولة من المعتزلة ومن وافقهم.

(14) ربحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، شباب الدين الخفاجي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة - مصر، ط1: 1386هـ - 1967م: ص336.

(15) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبشيبي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط2: 1986م: 3/443.

(16) سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، أبو الفضل محمد خليل بن مراد، دار البشائر الإسلامية و دار ابن حزم، ط3: 1408هـ - 1988م: 3/101-102.





## كتاب قراته

فصول في الثقافة والأدب

للقاضي الأديب «علي الطنطاوي»

عمر بوشنة

كثيرا ما كان يتردد اسم الأديب الطنطاوي رحمه الله على مسامعي وأنا أدرج في مرحلة الطلب، متتبعا كتب الأدب والشعر والبيان، ولكنني لم أحظ بالاطلاع على ما كتبه إلا مؤخرا، وذلك قبل أربع سنوات تقريبا؛ حين قرأت للشيخ الأديب الدكتور عائض القرني حفظه الله مقالا نشره في جريدة الشروق اليومي التي أدمنت مطالعة ركن «أقلام الخميس» فيها، فكان لا يفوتني أبدا الاطلاع على خيرة ما يكتبه المثقفون والأدباء فيه..

وقد كان في أحد مقالاته موضوع حول شخصية الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، أبدع في نسج خيوطها أديب لا يقل شأناً عنه هو الدكتور عائض القرني، فأعجبت بما كتبه فيه تحت عنوان : «علي الطنطاوي الأديب الساحر»، هذه الكلمة التي جمع فيها فأوغى، وما أظن أحداً أنصف الشيخ الطنطاوي رحمه الله أفضل مما كتبه الدكتور «عائض القرني» فيه!

ورحمتُ أفْتَش عن  
هذا الأديب الذي  
نعتة بالساحر  
حتى وقفت  
على كتاب  
له

علي الطنطاوي

بعنوان: «فصول في الثقافة والأدب» في نسخة الكترونية، فلم يمرّ الأسبوع حتى كنت قد أنهيته دون أن أكون متفرغاً له، وبدأت في كتاب آخر له بعنوان: «فكر ومباحث»، الذي لا يبعد عن سابقه في الموضوعات التي كان يعالجها.

غير أن النسخ الالكترونية قد نالت مني الجهد؛ نظرا لمعاناتي مع ضعف البصر، فتوقفت عن قراءة النسخ الالكترونية، ورحت أبحث عن النسخ الورقية لكتب الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، فوفقني الله أن وجدت ثلاثة عناوين أخرى هي: «صور وخواطر»، و «مع الناس» و «فصول اجتماعية» فأهيتها واحداً تلوا الآخر.

وفي كل كتاب أقرؤه للشيخ الطنطاوي رحمه الله ازداد إعجاباً بسعة فكره واطّلاعه، وغزير علمه، وحسن بيانه الساحر الأسر، فهو يكتب بأسلوب أدبيّ جزل رصين، تملؤه روح الدعابة والمرح، ويصف المشاهد فيصيب الوصف بأدق تعبير حتى تتخيّله ماثلاً أمامك، وكأنّ المنفلوطي رحمه الله قد نفث في روعه نفثاً من نفثاته البيانية الخالدة، ولا غرو في ذلك فالشيخ نفسه صرّح بما للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي عليه من آياد بيض؛ إذ قرأ مؤلفاته كثيرا وأدمن مطالعتها وحفظ بعضها، فقد كانت المنهل الأول الذي أخذ بيده إلى فنّ الإنشاء.

### • نبذة عن المؤلف

«علي الطنطاوي» هو الأديب والشاعر والفقيه والقاضي السوري الدمشقيّ، ولد سنة 1327 هـ الموافق لـ 1909م من أسرة معروفة بالعلم، كتب في العديد من المجالات التي كانت تصدر في حياته، وألف ما يزيد عن ثلاثين مؤلفاً، لعلّ أضخمها ذكرياته الشخصية التي تقع في ثمانية أجزاء، ضمّت أهم مواقف حياته والأحداث التي مرت به، وقد وافاه أجله سنة 1420 هـ الموافق لـ 1999م.

### • كتابنا لهذا العدد

أما كتابه الذي أثرت أن أعرض له بالحديث في هذا العدد من مجلة «الخريدة» فهو بعنوان: «فصول في الثقافة والأدب» وهو أحد الكتب التي اعتنى بها حفيده بعد مماته وجمعها وأخرجها في ثوب قشيب، والكتاب يقع في عشرين وثلاثمائة صفحة، ضمّنه مجموعة من الموضوعات المتعددة، منها ما يخصّ الثقافة عامة ومنها ما يخصّ الأدب والنقد وآراءه فيهما، ومنها ما يتعلّق باللغة والنحو، إضافة إلى قضايا اجتماعية وأخبار تاريخية نادرة، يسوقها بأسلوبه المشوق الطريف الذي لا يكاد يخلو منه كتاب



الوسطى، يذكر في كتابه «الصَيِّدَةُ» (أي الصيدلة) أنهم لم يكتفوا بدراسة الطب عامة بل كانوا يعرفون التخصص فيه».

5. «أما كتاب «الأغاني»، فإن من أراد متعة الأدب، وطلب جيد الشعر، وأراد الإحاطة بأخبار الشعراء والمغنين، للذة الأدبية وتقوية الملكة البيانية، فلا يجد كتاباً أجمع لهذا كله منه. وما منّا إلا من كان «الأغاني» غُدّة الأولى في إقامة اللسان وتجويد البيان. ولقد قرأته كله (وهو بضعة وعشرون جزءاً) ثلاث مرات، واستفدت منه في الأدب واللغة ما لم أستفيد مثله من غيره.

كل هذا صحيح، أما أن يكون كتاب دين تؤخذ منه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يفعل هؤلاء الأدباء الكبار المعروفون، أو أن يكون كتاب تاريخ يُعتمد عليه في تحقيق الأخبار، فلا».

6. «...والأستاذ يعلم أن عندنا علماً ليس لأمة علم مثله، هو «علم الرجال»، أعني علم «الجرح والتعديل». ويعلم أن علماء لم يدخروا في هذا الشأن وسعاً، ويعلم أن أجمع كتاب للرجال هو «الخلاصة» للخزرجي، الذي لخص فيه كتاب «التذهيب» للحافظ الذهبي و «التقريب» لابن حجر و «الإكمال» لابن ماكولا و «الكامل» للحافظ عبد الغني المقدسي و «الجمع» لابن طاهر و «الميزان» للذهبي، وهي أعظم كتب هذا العلم».

7. «لقد كلفنا سليم الجندي -لما جاءنا أستاذاً للعربية في مكتب عنبر في الشام سنة 1923- أن نحفظ قصيدة المتنبي التي ودّع بها سيف الدولة: «وا حرّ قلباه ممّن قلبه شيم»، وبعد أن شرحها لنا عاد فقال لنا:

ونظراً لنفاضة الكتاب وقيمته العلمية فإنني سأختار منه بعض المنتخبات التي قيّمتها، حتى تعم الفائدة لمن لم يتسنّ له الاطلاع على الكتاب كله، كما أنني سأركّز على ما يتعلّق منها بالفوائد والنوادر الأدبية، والإشارة إلى أهم المصادر والكتب التراثية وبعض آراء الشيخ فيها عموماً.

#### • مقتطفات

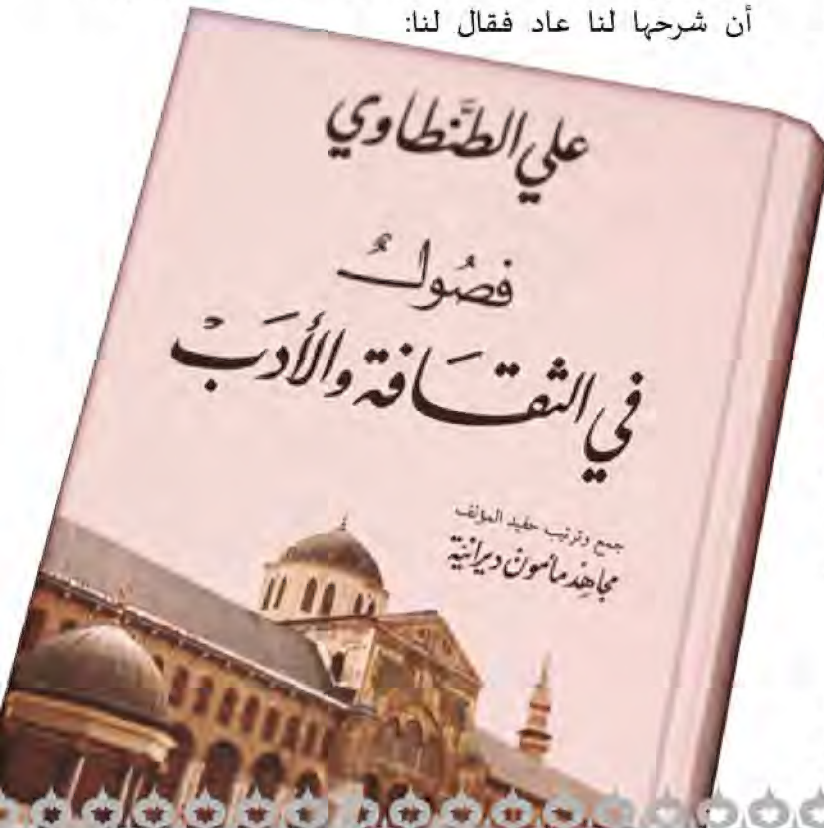
1. يقول الشيخ «علي الطنطاوي» -رحمه الله- : «كان في مكتبة العزيز بن المعز، وهو من ملوك الدولة العبّيدية التي تدعى بالفاطمية، بضع وثلاثون نسخة من كتاب «العين». وكان في هذه المكتبة عشرون نسخة من تاريخ الطبري، منها (كما يقول المقرئ في خطه) نسخة بخط الطبري نفسه، وفيها مئة نسخة من «الجمهرة» لابن دُرَيْد. وكل ذلك في عهد لم تكن عُرفت فيه المطابع ولا الطابعات».

2. مؤلفات ألفها أصحابها وهم مكفوفو البصر :

«إنّ من هذه الكتب ما لا يستطيع الواحد منا أن يقرأه قراءةً، فكيف إذا حاول أن ينسخه نسخاً؟ فكيف وكثير منها أملاه مؤلّفوه إملاءً لأنهم كانوا من مكفوفي البصر؟ كالمخصّص لابن سيّده، أوسع كتاب في اللغة، أملاه إملاءً . والاستيعاب لابن عبد البرّ، أملاه إملاءً وهو ضرير لا يقدر أن يأخذ من الكتب. و «المبسوط» أوسع كتاب في الفقه، أملاه مؤلفه وهو محبوس في الجُبّ تحت الأرض لكلمة حق قالها عند حاكم ظالم، فكان تلاميذه يقفون في الطريق يستملّون ويكتبون وهو يملئ عليهم من بطن الجُبّ، ما عنده كتاب ينظر فيه ولا مرجع يرجع إليه، وقد بيّن ذلك في كتاب العبادات في أهرباب الإقرار».

3. «...وابن سينا ألفَ رسالته عن القولنج (ونحن لا نزال إلى الآن نستعمل في الشام كلمة «القولنج» مرض معوي مؤلم)، ورسالة حيّ بن يقظان (التي قلدها ابن طُقَيْل الأندلسي، فاشتهرت قصته وماتت قصة ابن سينا) كتبها وهو سجين. وقصة «حي بن يقظان» هي التي نسج على منوالها ومشي على أثرها مؤلف رواية روبنسون كروزو المشهورة. بل إن الكتاب العظيم لابن سينا، وهو «الشفاء» الذي بقي الأساس في دراسة الطب في جامعات أوروبا إلى ما قبل أربعمئة سنة، ألفه وهو هارب متنقّل في البلدان مُتوارٍ عن الأبصار».

4. «والبيروني، المفكر العظيم الذي يقول عنه سخاو (وهو أحد المستشرقين الألمان) بأنه أكبر عقلية كانت في القرون





دعوها، فإن المتنبي شاعر مولّد لا يُحتجّ بعربيّته، وراح يختار لنا من الشعر الجاهلي وشعر صدر الإسلام ما لا أزال إلى الآن -بعد خمس وستين سنة- أحفظ طائفة صالحة منه. وطلاب اليوم إن كُلفوا حفظ مئتي بيت في العام كله عدّوا ذلك من المصائب التي لا تحتمل!».

8. «كانوا يختارون لنا روائع الشعر الجاهلي والإسلامي. فانظروا اليوم في كتب المختارات التي يضعونها بين أيدي الطلاب ليكون ما فيها قدوة لهم يتبعون أثره ويمشون على طريقه. انظروا، ماذا ترون؟ رأيت مرة في كتاب مدرسي قصيدة لرجل يدعونه بدر شاكر السيّاب، لولا أنها مكتوبة بحروف عربية لما فهمت منها شيئاً! أفبمثل هذا الشعر تريدون أن تنشئوا أولادكم على الفصاحة وعلى البيان وعلى فهم إعجاز القرآن؟!»

9. «وفي دراسة نقائص جرير والفرزدق أدبٌ كثير، وفيها -كما قال يونس- ربع اللغة، وهي أنفع شيء في إقامة اللسان وتقوية السليقة، ولكنها توحى بتحسين الأعراف الجاهلية في الحياة، تلك الأعراف التي كان إبطالها من جملة أغراض الإسلام.»

10. «وفي شعر بشار وأبي نواس وأمثالهما أدبٌ كثير، ولكنّ فيه هدم الأخلاق ونشر الفساد. وفي شعر أبي العتاهية أدبٌ كثير، ولكنّ فيه قتل الطموح والاستسلام إلى اليأس. وكذلك المتنبي في تزوير التاريخ وتشويه الحقيقة، حين يرفع سيف الدولة وهو طاغية ظالم (وإن كان قائداً مظفراً) ويخفض كافوراً وهو من أصلح الملوك.»

11. «الحق والخير والجمال هي غايات العقول، ومقاصد المعارف، ومثُل الناس العليا؛ فما يوصل إلى الحق من معارف البشرف هو العلم، وما يريدون به الجمال فهو الفن، وما يصلون به إلى الخير فهو الأخلاق.»

12. «والعلم والفن يختلفان غايةً وطريقاً ووسيلةً، فالعلم غايته الحقيقة، وطريقه المحاكمة، ووسيلته الفكر. والفن غايته الجمال، وطريقه الشعور، ووسيلته الذوق.»

13. «أما الأدب على وجه التحديد والتعريف فهو «مجموع ما في لسان من الألسنة من كلام جميل» من شعر أو نثر، ومن مذكرات أو رسائل، أو عرض (ريبورتاج) أو مقالات أو قصة أو رواية.»

14. «فالأدب إنشاء وإبداع، أما النقد فهو وزن وتقويم: يشعر الأديب، فيعبّر عن شعوره بقطعة من الشعر أو النثر ينشئها ويبدعها، فيجيء الناقد فيضعها في كفة ميزانه، ويضع في الكفة

الأخرى الصورة الكاملة التي يريد لها، ثم يبيّن ما في القطعة من الخفة أو الرُجحان، ومن الكمال أو النقصان.»

«إن أكثر المتأدّبين لا يفرقون بين الشعر والنثر إلا بالوزن، مع أن في الموزون ما ليس بشعر، كقول ابن مالك:

ولا يصحّ الابتداء بالتكره  
ما لم تُفد؛ كعند زيد توره  
وقول معارض الدريدية:

من لم يُرد أن تنقب نعلهُ  
يحملها في يده إذا مشى

ومن أراد أن يصون رجله  
فلبسها خير له من الحفى

وقول الآخر (وهو -إن أردت الصدق- من أصدق القول):

الليل ليل، والنهار نهار  
والأرض فيها الماء والأشجار

وفي غير الموزون ما هو الشعر محض الشعر، كالذي ترجمه الزيات نثراً من شعر لامرئين، وما نثر به زكي مبارك الكثير من شعر الشريف، وفي كثير مما كتب الرافعي.»

15. «أما التعريف الأدبي للشعر فهو أنه «التعبير الجميل عن الشعور النبيل.»

16. «والنقد نقدان: نقد القطعة من حيث لغتها وإعرابها وتأليفها ووزنها، وهذا «نقد علمي» لا يختلف فيه ناقد عن ناقد، لأن اعتماده على قواعد ثابتة وقوانين مقرّرة، فإن اختلف فيه ناقدان رجعا إلى المعاجم الموثوق بها وإلى كتب النحو والصرف والبلاغة والعروض. ونقدها من حيث جمال أسلوبها وأثرها في نفس قارئها، وهو «نقد فني» اعتماده على الذوق، فهو لذلك قد يختلف باختلاف النقاد.»

17. «...» «الدماعة» هي بائنة جرير الشهيرة التي هجا فيها بني ثُمير، هو سماها «الدماعة». سهر فيها ليلة كاملة يتقلب على فراشه -كما في كتب الأدب- حتى كان السحر، فإذا هو قد قالها ثمانين بيتاً في بني ثُمير، فلما ختمها بقوله:

فئض الطُرف إنك من ثُمير  
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

كبر ثم قال: قد والله أخزيتهم إلى آخر الدهر. وهذه القصيدة تسميها العرب «الفاضحة»: تركت بني ثُمير ينتسبون في البصرة



إلى عامر بن صَعَصَعَة ويتجاوزون أباهم نُميراً إلى أبيه، هرباً من ذكر نُمير وفراراً مما وُسم به من القضيحة والوصمة».

**18. «... الجاحظ»** (وهو في رأي أحد الخمسة الذين انتهت إليهم إمامة النثر العربي: الجاحظ وأبي حيان التوحيد والغزالي وابن خلدون ومحيي الدين بن عربي)

**19. «سألني سائل عن أسلوب الرافعي»** وأسلوبه على أربعة أنواع:

(1) أسلوبه في كتاباته التي يتفلسف فيها ويكتب فيما يسميه «فلسفة الحب»، ككتابه «رسائل الأحزان» وكتابه الآخرين: «أوراق الورد» و «السحاب الأحمر»، وهو أسلوب معقد مصطنع ثقيل، وإن كان مملوءاً بالتشابه النادرة، والاستعارات العجيبة، والصناعة البيانية.

(2) أسلوبه في تأليفه العلمية، ككتابه «تاريخ آداب العرب»، ومنه الجزء الخاص بإعجاز القرآن، وهو أسلوب جزل متين صحيح يشبه أسلوب الجرجاني في «دلائل الإعجاز».

(3) أسلوبه في مقالات «الرسالة» التي جمعها في كتاب «وحي القلم»، وهو أسلوب ممتاز، فيه بيان وبلاغة وفيه -غالباً- وضوح. وخيره ما كان على صورة قصة، كقصة «أمراء للبيع» و «قصة زواج».

(4) أسلوبه في النقد، وهو مملوء بالسخرية والتعالي والهُزْز واللمز، وإن كان نقده لطفه حسين -في كتاب «تحت راية القرآن» - نقداً نظيفاً، أما نقده للعقائد في كتاب «على السقود» فهو هجاء بذيء، لذلك لم يطبع اسمه عليه.

أما الذي يُنتقد عليه فهو اعتداده الشديد بنفسه وتعاليه على خصومه، وتعقيد عباراته وبذاءة ألفاظه أحياناً. لكنه في كتاباته كلها (إلا ما يسميه فلسفة الحب) يدافع عن الإسلام والعروبة ويقف لأعدائها بالمرصاد، وقد بقي أربعين سنة أو أكثر وهو الممثل الأول للأدب الإسلامي والمدافع عنه، رحمه الله».

**20. «أما تصنيفات العلوم فهي كثيرة متعددة بتعدد الأسس التي يمكن بناؤها عليها، فمن العلماء من صنفها تبعاً لحكمها في الشرع كالغزالي تارة، وتبعاً لغير ذلك تارات أخرى. ومنهم من صنفها باعتبار أصلها كابن خلدون والحفيد، ومنهم من صنفها بحسب طبيعة موضوعها كطاشكغري زاده، ومن صنفها بغايتها كأرسطو، أو بالملكة البشرية المتعلقة بها مثل بيكون ودروكايم، أو بموضوعها مثل مثلاً كاتب جلبي (هو المعروف باسم «حاجي خليفة»، وكتابه الذي صنف فيه العلوم وعُرف بكتبتها تعريفاً**

ببليوغرافياً هو «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون»...» وأوغست كونت».

**21. «وفي الأدب العربي أدب للصيد قائم برأسه يُسمى «الطَرْدِيَّات»، نبغ فيه جماعة منهم أبو نُؤاس، وأبو فراس، وكُشاحِم، والجلبي، وغيرهم».**

#### • خلاصة

بهذا أكون قد أنهيت ما وقع عليه الاختيار من كتاب: فصول في الثقافة والأدب للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله، راجياً من الله أن تكون فيه الإفادة لقارئه، وأستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، على أمل أن ألتقيكم مع كتاب آخر إن شاء الله. [اه].

(1) علي الطنطاوي. فصول في الثقافة والأدب. دار المنارة. جدة. ط 1، 2007م. ص 90.

(2) علي الطنطاوي. المرجع نفسه. ص 94.

(3) المرجع نفسه. ص 95.

(4) المرجع نفسه. ص 100.

(5) المرجع نفسه. ص 102.

(6) المرجع نفسه. ص 104.

(7) المرجع نفسه. ص 174.

(8) المرجع نفسه. ص 175.

(9) المرجع نفسه. ص 192.

(10) المرجع نفسه. ص 192.

(11) المرجع نفسه. ص 193.

(12) المرجع نفسه. ص 193.

(13) المرجع نفسه. ص 194.

(14) المرجع نفسه. ص 195.

(15) المرجع نفسه. ص 196.

(16) المرجع نفسه. ص 198.

(17) المرجع نفسه. ص 219-220. (الحاشية).

(18) المرجع نفسه. ص 229.

(19) المرجع نفسه. ص 246.

(20) المرجع نفسه. ص 287.

(21) المرجع نفسه. ص 292.





البريد الإلكتروني: majalat.alkharida@gmail.com